الحجة في تفسير سورة السجدة

(دراسة تحليلية)

د / أحمد محمد توفيق عبد العال

مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣ م

التمهيد

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، القائل في كتابه الكريم: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١-٢]، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أمره ربه بتبليغ دعوته، والتوكل عليه سبحانه، فقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن دعا بدعوته، واستن بسنته، واقتفى أثره إلى يوم الدين.

وبعد...

فالقرآن الكريم كتاب الله، فيه نبأ من قبلنا، وخبر من بعدنا، وحكم ما بيننا، هو الفصل ليس بالهزل، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وصدق رسول الله القائل: «**فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذِكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثير الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجبًا، من علم به سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم**»[1].

---

(١) رواه الإمام الترمذي في «سننه»: جـ ٤، ص ٣٤٥- ٣٤٦، باب: (ما جاء في فضل القرآن الكريم).

فهو الكتاب الحق، ووعد الله الصدق، وهو خير هاد إلى الطريق المستقيم، يستضيء المسلم بنوره، ويسترشد بهديه إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنـزيل من حكيمٍ حميد، أُحكِمت آياته، ثم فُصِّلت من لدن حكيمٍ خبير؛ ليخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم، وهو الحق القاطع، والنور الساطع المستقيم، والمنهج القويم، الذي فرض الله على العباد أن يؤمنوا به، ويهتدوا بهديه، وينتهجوا سبيله، ويلزموا طريقه في الأقوال والأعمال وسائر الشؤون والأحوال، نزل لهداية البشر أجمعين، فله فضائله وآدابه، التي أبرزت عظمته وقدره ومكانته، و له أحكامه التي ميزته عن غيره من الكتب السماوية.

يقول الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره ولا تمسك بشيءٍ يُخالفه»[1].

وقد عرَّف العلماء قدر هذا الكتاب العظيم، فعكفوا عليه تعلمًا وتفقهًا وبحثًا وتفسيرًا وبيانًا، وأفنوا أعمارهم في سبيل خدمته، وسخَّروا معارفهم وعلومهم؛ لتكون وسيلة في إدراك حقائقه ودقائقه.

وكان من فضل الله تعالى أن هيأ له العقول الثاقبة، والقلوب الواعية، والجهود المتضافرة، لبيان وتوضيح وتقريب معاني وأحكام هذا الكتاب الكريم.

ولما كنت من المشتغلين في حقل القرآن الكريم، الذي هو مأدبة الله تعالى؛ لذلك استخرته سبحانه، فوفقني لاختيار سورة ﴿ السَّجْدَةِ ﴾ كموضوع للبحث والدراسة والتفسير التحليلي، واجتهدت فسميت بحثي: (**الحجة في تفسير سورة السجدة - دراسة تحليلية**)، هذه السورة الكريمة التي ركزت على أصول العقيدة

(١) ينظر: كتاب «الموافقات» للشاطبي: جـ ٤، ص ١٤٤.

الإسلامية الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث، والحديث عن بدء الخليقة، ونعيم الله للمؤمنين الصادقين، وعقاب الله الشديد للكافرين، وقصص السابقين وغير ذلك، وإني أحتسب هذا العمل عند الله تعالى الذي يختص برحمته من يشاء من عباده، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

ومنهجي الذي سرت عليه في تفسير السورة الكريمة يتلخص فيما يلي:

أولًا - أذكر النص القرآني الكريم الذي يرتبط بموضوع واحد، وتحت عنوان واحد.

ثانيًا - أربط الآيات القرآنية الكريمة بما قبلها عند الحاجة.

ثالثًا - أبين سبب النزول إن وجد.

رابعًا - أذكر القراءات، والمباحث العربية من اللغة والإعراب والبلاغة.

خامسًا - أشرح الآيات القرآنية الكريمة في حدود الطاقة البشرية وتوفيق الله تعالى.

سادسًا - أختم بذكر ما يُستنبط من الآيات الكريمة من أحكام وعبر.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

كتبه

د/ أحمد محمد توفيق عبد العال

أولًا - مقدمة عن السورة الكريمة:

وتشمل: اسم السورة، وزمن نزولها، وعدد آياتها، وصلتها بما قبلها، ومجمل ما اشتملت عليه من معانٍ:

سورة ﴿ السَّجْدَة ﴾ هي السورة الثانية والثلاثون في ترتيب المصحف، وتسبقها سورة ﴿ لقمان ﴾، وتأتي بعدها سورة ﴿ الأحزاب ﴾، وترتيبها من حيث النزول: نزلت بعد سورة ﴿ المؤمنون ﴾.

اسم السورة:

تسمى هذه السورة الكريمة بسورة ﴿ السَّجْدَة ﴾، ولعلها سميت بهذا الاسم لما ذُكِرَ فيها من أوصاف المؤمنين المخلصين الذين وصفهم الله تعالى بأنهم إذا ذكروا بآيات الله يخرون للأذقان سجدا لله تعالى.

ومن المعلوم أن أسماء سور القرآن الكريم توقيفية على الراجح من أقوال العلماء، كما أشار الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كما تسمى (سورة المضاجع). يذكر الإمام السيوطي ما نصه: «قد يكون للسورة اسم واحد، وقد يكون لها اسمان فأكثر»، ثم قال: «... و﴿ السَّجْدَة ﴾ تُسمى أيضًا (المضاجع)»[1].

زمن نزولها:

سورة ﴿ السَّجْدَة ﴾ (مكية) بإجماع العلماء، إلا آية واحدة (فمدنية)، وهي قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السَّجْدَة: ١٦].

[رُوِيَ عن مقاتل]

---

(١) ينظر: «الإتقان في علوم القرآن»: جـ ١، ص ٥٤، ط. الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية.

- وقيل: إلا ثلاث آيات، وهي قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ١٨-٢٠]. [رُوِيَ عن الكلبي ومقاتل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ].

- وقيل: إلا خمس آيات، فجمع بذلك بين القولين السابقين، أي من قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ١٦-٢٠]. [بهذا قال: ابن الجوزي، والآلوسي(١)، وابن عطية(٢)، و القرطبي(٣)، و السيوطي(٤) رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وذكرها الزركشي رَحِمَهُ اللَّهُ في السور المكية، ولم يستثن منها شيئًا(٥).

وعلى أي حال فالسورة الكريمة مكية في مجموعها، ووجود بعض آيات مدنية فيها لا يمنع وصفها بأنها مكية؛ لأن الحكم بمكية السورة أو مدنيتها إنما هو باعتبار وصف الأكثرية الغالبة فيها، واللهُ أعلم.

---

(١) تفسير «زاد المسير»: جـ٦، ص ١٧٧، ط. دار الكتب العلمية، وينظر: «تفسير البحر المحيط»: جـ٨، ص ٤٢٨، ط. دار الفكر، وينظر: «تفسير الآلوسي»: جـ١٢، ص ١٧٤، ط. دار الفكر.

(٢) «تفسير المحرر الوجيز»: جـ٤، ص ٣٥٧، ط. دار الكتب العلمية.

(٣) «القرطبي»: جـ٦، ص ٥١٦٦، ط. دار الشعب.

(٤) ينظر: «الإتقان في علوم القرآن»: جـ١، ص ١٦، ٢٦، ط. الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية.

(٥) ينظر: «البرهان في علوم القرآن»: جـ١، ص ٢٤٩، ط. دار الفكر.

عدد آياتها:

ثلاثون آية، وقيل: تسع وعشرون.

يقول الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهي تسع وعشرون آية في البصري، وثلاثون عند الباقيين»(١).

والاختلاف وقع هنا في أن:

- بعضهم عد قوله تعالى: ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠] آية، والبعض الآخر لم يعدها آية.
- وبعضهم عد ﴿الٓمٓ﴾ [السجدة: ١] آية، والبعض الآخر لم يعدها(٢).

[وبهذا قال الطبرسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ](٣)

وعلى أي حال فالسورة الكريمة هي هي عند الفريقين، والاختلاف السابق لا يترتب عليه أي زيادة أو نقصان في السورة الكريمة، وكلٌ نقل عمن سمع من رسول الله ﷺ.

أما عدد كلماتها: فثلاثمائة وثلاثون كلمة، وعدد حروفها: ألف وخمسمائة وتسعة وتسعون حرفًا.

صلتها بما قبلها:

المتأمل في سور القرآن الكريم يلاحظ ارتباط كل سورة بما قبلها وما بعدها ارتباطًا وثيقًا.

يقول أبو حيان في وجه اتصال سورة ﴿السجدة﴾ بسورة ﴿لقمان﴾: «لما ذكر تعالى فيما قبلها دلائل التوحيد من بدء الخلق، وهو الأصل الأول، ثم ذكر المعاد والحشر،

---

(١) ينظر: «تفسير الآلوسي»: جـ ١٢، ص ١٧٤، ط. دار الفكر.

(٢) ينظر: «بشير اليسر شرح ناظمة الزهر» للإمام الشاطبي في علم الفواصل: عبد الفتاح القاضي، ص ١٣٠.

(٣) ينظر: «تفسير مجمع البيان»: جـ ٢١، ص ٣٢٤، ط. دار إحياء التراث، و«التفسير القرآني للقرآن»: جـ ٢١، ص ٥٩٨، ط. مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة.

وهو الأصل الثاني، وختم به السورة، ذكر في بدء هذه السورة الأصل الثالث، وهو تبين الرسالة[١]. اهـ

ويقول الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **نقلًا عن جلال السيوطي في (وجه الصلة):** إنها شرح لمفاتيح الغيب الخمسة، التي ذكرت في خاتمة سورة ﴿ لُقۡمَانَ ﴾[٢].

- فقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥].

- شرح قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان: ٣٤]، ولذلك عقب بقوله: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [السجدة: ٦].

- وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ... ﴾ [السجدة: ٢٧]، شرح قوله سبحانه: ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ ﴾ [لقمان: ٣٤].

- وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة: ٧]، شرح قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾ [لقمان: ٣٤].

- وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [السجدة: ٥]، و ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة: ١٣]، شرح لقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗا ﴾ [لقمان: ٣٤]

- وقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [السجدة: ١٠]، إلى قوله: ﴿ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ... ﴾ [السجدة: ١١]، شرح قوله سبحانه: ﴿ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤]، ولا يخلو عن نظر[٣]. اهـ

---

(١) «تفسير البحر المحيط»: جـ٨، ص ٤٢٨، ط. دار الفكر.

(٢) الآية [٣٤].

(٣) «تفسير الآلوسي»: جـ ١٢، ص ١٧٤ - ١٧٥، ط. دار الفكر، و ينظر: «تناسق الدرر في تناسب السور» للسيوطي: ص ١٢٦، ط. مكتبة دار الاعتصام.

وبالنظر في كلتا السورتين نلاحظ الآتي:

أولًا - كلتا السورتين من السور المكية التي افتتحت بالحروف المقطعة التي تدل على إعجاز القرآن الكريم، وأنه من عند الله تعالى، وجاء التركيز فيهما على أصول العقيدة الإسلامية.

ثانيًا - اشتمال كلتا السورتين على الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة في الأنفس والآفاق، والتي تدل على وحدانية الله تعالى، وقدرته وكماله جَلَّوَعَلَا.

ثالثًا - اشتمال كلتا السورتين على بيان فضل الله تعالى، وما أعده لعباده الصالحين في جنات النعيم مما لا عين رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وبيان حسن عاقبتهم، وفى المقابل بيان ما أعده الله للطالحين من العذاب الأليم المهين في الجحيم، وبيان سوء عاقبتهم.

رابعًا - اشتمال كلتا السورتين على التسلية، والتطمين، والتثبيت للنبي ﷺ وأصحابه الكرام – رضوان الله عليهم –.

مُجمل ما اشتملت عليه السورة الكريمة من معانٍ:

افتُتِحت السورة الكريمة بالحروف المقطعة، والثناء على القرآن الكريم، وبيان أنه المعجزة الخالدة الباقية إلى يوم الدين، وأنه مُنزَّل من عند الله تعالى ربِّ العالمين للهداية والبيان، لا باطل فيه، ولا شبهة، ولا ارتياب، واضح الإعجاز، ساطع الحجة والبرهان، وتدحض شبه المشركين الزاعمين أن الرسول ﷺ قد افترى القرآن من عند نفسه.

ثم تنتقل السورة فتتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية لله تعالى بما تعرض من الأدلة الكونية في الأنفس والآفاق التي تدل على عجائب الصنعة، وبديع القدرة فيما خلق الله عَزَّوَجَلَّ، وتلفت الأنظار إلى إبداع الواحد القهار، وشمول

إرادته وإحسانه لكل شيءٍ خلقه، وتعرض جانبًا من شبهات المشركين التي تتعلق باليوم الآخر، وإنكارهم البعث بعد الموت وإعادتهم خلقًا جديدًا مرة أخرى، وتدحض شبهتهم، وترد عليهم بالحجج القاطعة، والأدلة والبراهين الساطعة، وتقرر إمكانية البعث والحساب، بما يقطع مقالتهم، ويزيل شكهم المريب، وتصور أحوالهم حينما يقفون بين يدي الخالق جَلَّوَعَلَا، وهم أذلاء صاغرون، يُحاسبون على النقير والقطمير.

وتُعرض السورة الكريمة بأسلوبٍ مُشوق ما أعده الله تعالى لعبادة الصالحين المؤمنين من الثواب العظيم، الذي لا تحيط بعلمه النفوس، ولا تستطيع أن تتصور كيفيته العقول والقلوب، وتقارن هذا النعيم المقيم بما أعده الله للكافرين من العذاب الأليم، وتصوِّر هول هذا العذاب وفظاعته.

ثم تُذكِّر السورة بفضل الله تعالى ونعمته على سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، من إيتائه التوراة، وما حوته من تعاليم ومواعظ، وما امتنَّ الله به على الصالحين المطيعين من بني إسرائيل، وتسوق التسلية للنبي ﷺ، والتثبيت للمستضعفين من المؤمنين، ببيان فضل الله ونعمته على مَنْ آمن مِنْ بني إسرائيل.

وتُختم السورة الكريمة بضرب الأمثلة، ولفت الأنظار، والدعوة إلى التفكير والتأمل والتدبير في آيات الله تعالى الكونية المشاهدة في الحياة، وتحكي جانبًا من سفاهات المشركين، وعدم إيمانهم باليوم الآخر، واستبعادهم وقت مجيئه، وتسوق التسلية والتطمين للنبي ﷺ مرة أخرى، وتأمره بالرد عليهم، ودحض شبههم، والـمُضِّي قُدُمًا في طريق الدعوة والإيمان.

ما ورد في فضلها من أحاديث:

❁ من فضائل هذه السورة الكريمة: ما ثبت في (الصحيحين) أنه ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١-٢]، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١][(١)].

❁ ومما ورد في فضلها أيضًا أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١-٢]، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١][(٢)].

❁ ومنها أيضًا أن النبي ﷺ قال: «﴿الٓمٓ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ تُفضلان على كل سورة في القرآن بستين حسنة»[(٣)].

ولنبدأ الآن بتوفيق الله تعالى وعونه في التفصيل والبيان، وتفسير السورة الكريمة تفسيرًا تحليليًا، فأقول وبالله أستعين.

---

(١) رواه الإمام البخاري في «صحيحه» بهامش «فتح الباري» في كتاب «الجمعة»، باب: (ما يُقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة): جـ ٢، ص ٤٣٨، برقم ٨٩١ بترتيب محمد فؤاد، وتعليق عبد العزيز بن باز، ط. دار القلم للتراث.

ورواه الإمام مسلم في «صحيحه» بهامش «شرح النووي»، في كتاب «الجمعة»، باب: (ما يُقرأ في يوم الجمعة): جـ ٦، ص ١٥٦، برقم ٨٨٠، بترتيب محمد فؤاد، ط. مكتبة أبو بكر الصديق بالقاهرة.

(٢) رواه الترمذي في «سننه»: جـ ١١/ ٢١، «أبواب ثواب القرآن»، باب: (ما جاء في فضل سورة الملك)، ط. دار الكتاب.

(٣) رواه الترمذي في «سننه»: جـ ٥، ص ٦٥.

(١) عظمة القرآن الكريم

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ١-٣].

أولًا - المباحث الإعرابية والبلاغية:

﴿الٓمٓ﴾: إن جعلناه اسمًا للسورة، أو القرآن الكريم فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا (آلم).

ويكون قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر بعد خبر على أنه مصدر على معناه لقصد المبالغة، أو بتقدير مضاف، أو هو مؤول باسم المفعول، أي: مُنَزَّل، وإضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى الموصوف، أو إضافة بيانيه بمعنى (من).

وقوله جل شأنه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر ثالث، وقوله: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبر رابع، ويجوز أن يكون ﴿الٓمٓ﴾ مبتدأ وما بعده إخبار له، أي: المسمى (بالم) الكتاب المنَزَّل لاريب فيه كائن من رب العالمين[1].

وقيل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مبتدأ، خبره: مِنْ ربِّ العالمين، وجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ معترضة بينهما، أو حال من الكتاب، وبهذا قال أكثر المفسرين.

فالعلامة أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ﴿الٓمٓ﴾ إمَّا اسم السورة فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا مسمى (بالم)، وإمَّا مسرود على نمط التعديد فلا محل له من الإعراب[2].

---

(١) ينظر: «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١١٦.

(٢) ينظر: «تفسير أبي السعود»: جـ ٥، ص ١٩٥.

أما الشيخ عبد الكريم الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول في إعرابها:

- «﴿الٓمٓ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبر لمبتدأ آخر محذوف دل عليه ما قبله، والجملة من المبتدأ المقدر وخبره خبر ﴿الٓمٓ﴾، وتقدير هذا ﴿الٓمٓ﴾ ذلك ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على هذا الأسلوب نزل كتاب الله مجملًا ومفصلًا، محكمًا ومتشابهًا، فألف، لام، ميم حروف مفصلة، و﴿الٓمٓ﴾ كلمة واحدة، وألف، لام، ميم محكمة؛ إذ لكل حرف منها دلالته و﴿الٓمٓ﴾ متشابهة؛ إذ لا يعلم تأويلها في هذه الصورة المركبة إلا الله والراسخون في العلم»[١].

- ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ الكَتْبُ في أصل اللغة ضم أديم إلى أديم بالخياطة، وفي العُرف ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط والكتابة، وقد يقال ذلك للمضموم بعضه إلى بعض باللفظ، فالأصل في الكتابة النظم بالخط، لكن يُستعار كل واحد للآخر، ولهذا سُمِّيَ الكلام، وإن لم يكتب كتابًا كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، والكتاب في الأصل مصدر، ثم سُمِّيَ المكتوب به كتابة، والكتاب اسم للصحيفة مع المكتوب فيه[٢]، والمراد به هنا: القرآن الكريم.

- ﴿لَا رَيْبَ﴾ أي: لاشك، والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل: لاريب في ذلك، أي: في كونه مُنَزَّلًا من ربِّ العالمين، ويؤيده قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، والضمير في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ يعود إلى المشركين، وهم وإن لم يجر لهم ذِكر، مذكورون في هذا المقام الذي لا يُرى فيه غير أهل الشرك والضلال والعناد الذين ينكرون الحق، ويمارون فيه[٣].

---

(١) ينظر: «التفسير القرآني للقرآن» للشيخ عبد الكريم الخطيب: جـ ٢١، ص ٥٩٨.

(٢) «معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم» للراغب الأصفهاني: ص ٤٤٠.

(٣) ينظر: «تفسير أبي السعود»: جـ ٤، ص ١٩٥.

﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾: اختلقه، أي اختلق القرآن من تلقاء نفسه، والافتراء: الاختلاق، يُقال: فلان افترى الكذب، أي: اختلقه، وأصله من الفري، بمعنى قطع الجلد، وأكثر ما يكون للإنسان[1].

﴿لِتُنذِرَ﴾: الإنذار التخويف من ارتكاب شيء تسوء عاقبته، و(ما) نافية، و﴿نَّذِيرٍ﴾ فاعل (أتاهم)، و﴿مِّن﴾ مزيدة للتأكيد.

وفي قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾ و﴿نَّذِيرٍ﴾: جناس اشتقاق.

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة، وفي هذا سر عظيم لعظمة النبي ﷺ وعلو منزلته، وإكرام الله تعالى له.

وقوله تعالى: ﴿يَهْتَدُونَ﴾ الهداية هي الدلالة بلطف، ومنه الهدية، وهُدِيتُ إلى البيت، واستعمل اللفظ هنا على سبيل التهكم مبالغة في المعنى، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

وقد ذكر العلماء أن هداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

* الهداية التي يعم بجنسها كل مكلف من العقل، والفطنة، والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيءٍ بقدر، قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]

* الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

* التوفيق للهداية، الذي اختص به من اهتدى، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

* الهداية في الآخرة إلى الجنة، قال تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٥].

---

(١) «التفسير الوسيط»: جـ ٢١، ص ١٨١.

وهذه الهدايات الأربع مترتبة بعضها على بعض، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابعة فقد حصل له الثلاث التي قبلها[١].

ومعنى هذا أنها تنطبق على من تحققت فيه شروط التكليف أولًا، وهو البالغ العاقل، فإن كل هداية بالنسبة له مترتبة على ما قبلها كما ذكر الراغب، أما غير المكلف كالصبي أو المجنون أو أهل الفترة، فهؤلاء يدخلون الجنة وتحصل لهم الهداية الرابعة، وهي الهداية إلى طريق الجنة، ودخولها بفضل الله.

قال تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٥-٦].

ثانيًا - الشرح وبيان المعنى العام للآيات الكريمة:

قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴾: كثرت أقوال المفسرين في المراد بالحروف المقطعة التي جاءت في أوائل بعض السور الكريمة، ومنها (سورة السجدة التي معنا)، واختلفوا فيها اختلافًا واسعًا، وذكروا آراءً متعددة حول معناها.

ويمكن القول بأنهم انقسموا في بيانها إلى فريقين:

الفريق الأول - جعلها مما استأثر الله تعالى به، وردَّ هذا الفريق علمها إلى الله تعالى، ولم يتعرضوا لتفسيرها.

والفريق الثاني - تكلم في معناها وفسرها، غير أنهم اختلفوا في ذلك على أقوال متعددة؛ فمنهم من قال: هي أسماء للسور، وقيل: هي من أسماء الله تعالى، وقيل: هي أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها، وقيل: ذُكِرت هذه الحروف في أوائل السور بيانًا لإعجاز القرآن الكريم بمعنى: أن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها[٢].

---

(١) «معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم» للراغب الأصفهاني: ص ٥٣٦.

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير»: جـ ١، ص ٢٣٥.

وأقرب الأقوال إلى الصواب - واللهُ أعلم - أن هذه الحروف المقطعة قد وردت في افتتاح بعض السور على سبيل الألفاظ، والتنبيه إلى إعجاز القرآن، فكأن الله تعالى يقول لأولئك الكافرين المعارضين في أن القرآن من عند الله: «هاكم القرآن ترونه مؤلفًا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم، ومنظومًا من حروف هي من الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم، فإن كنتم في شك من كونه مُنَزَّلًا من عند الله فهاتوا مثله، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك، أو هاتوا عشر سور من مثله أو سورة واحدة صغيرة من مثله».

ومع كل هذا التساهل في التحدي فقد عجزوا، وانقلبوا خاسرين، وثبت بذلك أن القرآن الكريم من عند الله تعالى وحده.

وهو رأي طيب، إلا أن بعض العلماء يرى أن الرأي الراجح في المراد من هذه الحروف هو أنها من المتشَابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه.

فالإمام السيوطي يذكر في هذا ما نصه: «ومن المتشابه أوائل السور، والمختار فيها: أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله»[(١)].

والإمام الحافظ ابن كثير ينقل عن بعض العلماء في هذا الصدد كلامًا طيبًا ترتاح له النفس، فيقول: «لاشك أن هذه الحروف لم يُنَزِّلها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبثًا ولا سُدى، ومن قال من الجهلة: أن في القرآن ما هو تَعَبُّد لا معنى له بالكلية، فقد أخطأ خطأً كبيرًا، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا وقلنا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] ولم يجمع العلماء فيها على شيءٍ معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل، فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين هذا المقام»[(٢)].

---

(١) ينظر: «الإتقان في علوم القرآن»: جـ ١، ص ٨- ١١.

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير»: جـ ١، ص ٣٧.

أقول: هذا ما نقله الحافظ ابن كثير عن غيره، ولا يلزم من ذلك هدم التفسير بالرأي المحمود؛ لأن الكلام في فواتح السور، وهي من المتشابه، ورأي السلف فيها أنهم يفوضون المراد منها إلى الله تعالى، وليس في هذا إبطال الإعجاز القرآني، كيف وهو قول السلف، وإعجاز القرآن الكريم قد وقع وتقرر قبل أن يظهر رأي الخلف، على أنني قد ذكرت أن مما قاله الخلف في الحروف المقطعة في أوائل السور أن المراد بها حروف المعجم نفسها إشارة إلى التحدي والإعجاز، فتحمل معنى: إن القرآن مكون من الحروف الهجائية التي تتكلمون بها أيها المشتركون، وتؤلفون منها خطبكم ومقالاتكم، فإن كنتم في شك من أن القرآن منزل من عند الله فأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين.

والإمام الشوكاني أيضًا يثبت هذا الرأي، ويرى أن هذه الحروف أنزلها الله تعالى لحكمة بالغة وأنه لا مجال للجزم بما أراده الله منها فيقول: «وإذا عرفت هذا فأعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازمًا بأن ذلك هو ما أراده الله عَزَّوَجَلَّ فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط، والذي أراه لنفسي، ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأمة أن لا يتكلم بشيءٍ من ذلك مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله عَزَّوَجَلَّ لا تبلغها عقولنا ولا تهتدي إليها أفهامنا»[1].

والإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ قد وفى هذا الموضوع حقه، ونقل كثيرًا من الأقوال في هذا الشأن، وإذا نظرنا إلى هذه الأقوال، وجدنا أنها تشير إلى أن معاني هذه الحروف من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وأنها سر من أسرار الله في القرآن الكريم، وهذه الأقوال تتفق مع ما ذكرناه من آراء العلماء في هذه الحروف مثل: الإمام السيوطي، وابن كثير، والشوكاني.

---

(١) ينظر: «فتح القدير» للشوكاني: جـ ١، ص ٣٠.

أما بقية الأقوال التي ساقها الإمام القرطبي فهي تشير إلى أن هذه الحروف لها معان، غير أن القائلين بذلك اختلفوا في المعاني التي تؤدى إليها هذه الحروف كما أوضحنا سابقًا.

ويقول الدكتور محمود بسيوني فودة: «بالبحث والتدقيق نجد أن الصواب في هذا الأمر هو: التوقف وعدم الخوض في تفسيرها، وهذا هو رأي معظم السلف... هذا ويسأل سائل فيقول: هل ثبت عن رسول الله ﷺ في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به؟».

ونجيب عن ذلك فنقول: لم يثبت عن رسول الله أنه تكلم في شيء من معانيها، وكل ما ورد عنه هو مجرد عدد حروفها، وما الذي يدعونا أن نخوض في أمر سكت عنه رسول الله ﷺ وهو المبين الأول لكلام الله عَزَّوَجَلَّ، إن الأولى بنا أن نقول: في فواتح السور آمنا به كل من عند ربنا، أبعد الله عنا الزلل والزيغ وفتنه الشيطان، وقربنا ممن يعترف بعجزه ويخضع لبارئه[1].

ومما تقدم من أقوال نلاحظ أن بعض العلماء اجتهدوا في بيان معاني هذه الحروف المقطعة، والبعض الآخر أمسكوا عن الحديث في معانيها، وكلاهما سديد ومقبولٌ، واللهُ أعلم.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [السجدة: ٢] المراد بالكتاب: القرآن الكريم. والمعنى: هذا الكتاب الموحى به إليك يا محمد ﷺ هو القرآن الحق الذي لا شك في أنه منزل ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي الإشارة إليه بأنه من رب العالمين ما في ذلك من عظمة هذا الكتاب؛ لأن كتابًا يكون من رب العالمين، يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس إلى مطالعته[2].

---

(١) ينظر: «المرشد الوافي»: د/ محمود بسيوني فوده: ص٢٧٠ - ٢٧٤.

(٢) ينظر: «تفسير الفخر الرازي»: جـ٦، ص ٥٥٣.

وكفى بإضافته إلى الله تعالى جلالًا وشرفًا لهذا الكتاب.

وعجل سبحانه بنفي الريب حيث جعله بين المبتدأ والخبر لبيان أن هذه القضية ليست محلًا للشك أو الريب، فكل منصف يعلم أن هذا القرآن من رب العالمين[1]، وفي هـذا إشارة إلى فضله تعالى، وإحسانه إلى الناس، وأنه الرب وهم المربوبون له.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ الضمير في (يقولون) يعود على كفار قريش، و(أم) هي المنقطعة التي بمعنى (بل والهمزة)، وهذا إخبار عما قاله المشركون في القرآن الكريم.

والمعنى: بل أيقولون اختلق محمد ﷺ القرآن وافتراه من تلقاء نفسه، وهذا استفهام إنكارى بمعنى أنه لا يستقيم منهم هذا القول بعد كونه: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وكذلك بعد ما ثبت عجزهم عن الإتيان بأقصر سورة منه وهم أهل الفصاحة والبلاغة، فهذا إما تعنت أو مكابرة أو جهل منهم حيث أعمي الله أبصارهم.

ثم أضرب الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن إنكارهم إلى إثبات أن القرآن هو الحق من عنده تعالى، فقال سبحانه: ﴿ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم وادعيتم، بل هو أي: القرآن الحق الثابت، والكلام الصادق من رب العالمين، فالجملة الكريمة تقرير لما قبلها.

ثم بين الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المراد من إنزال هذا القرآن، فقال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أي: أنزل عليك القرآن يا محمد ﷺ لتنذر به قومًا لم يأتهم رسول قبلك رجاء أن يهتدوا ويتبعوا هذا الحق.

وقد أخبر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه لم يأتهم رسول قبل محمد ﷺ مع أنه تعالى أرسل رسلًا كثيرين قبله، وقد أجاب المفسرون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ عن ذلك بإجابات مختلفة تتلخص في أنهم أهل الفترة بين سيدنا محمد وعيسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ

(١) ينظر: «التفسير الوسيط»: د/ محمد سيد طنطاوي: جـ ٢١، ص ١١٨.

وقد بعث الله الرسل قبل ذلك كسيدنا إبراهيم، وهود، وصالح، وغيرهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولكن لما طالت الفترة على هؤلاء أرسل الله إليهم محمدًا ﷺ لينذرهم عذاب الله، ويقيم عليهم الحجة بذلك.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه ليس معنى قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أنه ﷺ يختص بإنذار قومه فقط، أي قريش أو العرب، وعلى هذا لا يكون نذيرًا لأهل الكتاب؛ لأنه كانت لهم رسل أيضًا، وفي هذا تعارض مع عموم بعثته ﷺ، وإرساله للعالمين جميعا من الثقلين الإنس والجن، وأنه خاتم النبيين.

ويجيب الإمام الرازى رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا الإشكال فيقول: «لو قال قائل: التخصيص بالذكر يدل على نفي ما عداه فقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ يوجب أن يكون إنذاره مختصًا بمن لم يأته نذير، لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير، فلا يكون الكتاب منزلًا إلى الرسول لينذر أهل الكتاب، فلا يكون رسولًا إليهم».

نقول: هذا فاسد من وجوه:

«أحدهما - أن التخصيص لا يوجب نفي ما عداه.

والثاني - أنه وإن قال به قائل لكنه وافق غيره في أن التخصيص إن كان له سبب غير نفي ما عداه لا يوجب نفي ما عداه، وها هنا وجد ذلك؛ لأن إنذارهم كان أولى، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ولم يفهم منه أنه لا ينذر غيرهم، أو لم يؤمر بإنذار غيرهم، وإنذار المشركين كان أولى لأن إنذارهم بالتوحيد والحشر، وأهل الكتاب لم ينذروا إلا بسبب إنكارهم الرسالة، فكانوا أولى بالذكر، فوقع التخصيص لأجل ذلك.

الثالث - هو أن على ما ذكرنا لا يرد ما ذكره أصلًا؛ لأن أهل الكتاب كانوا قد

ضلوا، ولم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ بعد ضلالهم، فلزم أن يكون مرسلا إلى الكل على درجة سواء، وبهذا يتبين حسن ما اخترنا»[1]. اهـ

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: إن إنذارك لهم من أجل هدايتهم، أو راجيًا أنت هدايتهم كي يهتدوا إلى الحق، ويؤمنوا بالله وحده، وسبق الكلام عن معنى الهداية.

ثالثًا - ما يُستفاد من الآيات الكريمة من الأحكام والعبر:

❁ تعظيم القرآن الكريم، وبيان أنه الحق الثابت المنزل من الله تعالى.

❁ أن العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ انقسموا في بيان المعنى المراد من الحروف المقطعة إلى فريقين كما سبق بيانه، وكلا الرأيين في نظرنا مقبولٌ وسديد.

❁ بيان عظمة سيدنا رسول الله ﷺ، ورد الشبهة التي نسبها المشركون إليه.

❁ وظيفة الرسول ﷺ وهي الإنذار والتبليغ، وهداية الناس للسعادة في الدنيا والآخرة.

❁ أن أهل الفترة بين سيدنا محمد وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ معفوون بفضل الله ورحمته.

---

(١) ينظر: «تفسير مفاتيح الغيب» للفخر الرازي: جـ٦، ص٥٥٣.

(٢) عظمة الله تعالى وكمال قدرته

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.
[السجدة: ٤-٦]

أولًا - المباحث الإعرابية والبلاغية:

السماوات: جمع سماء، والسماء كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت: سماؤه[١].

الولي: ضد العدو... وكل من ولي أمر أحد فهو (وليه)[٢].

الشفيع: صاحب الشفعة وصاحب الشفاعة[٣].

التدبر في الأمر: النظر إلى ما تئول إليه عاقبته[٤].

يقول ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدال والباء والراء أصل هذا الباب، وأن جُلَّه في قياس واحد، وهو آخر الشَّيء، وخَلفُه خلاف قُبُلِه، وتشذ عنه كلمات يسيرة، والتدبير: أن يدبر الإنسان أمره، وذلك أنه ينظر إلى ما تصير عاقبته وآخره»[٥].

---

(١) «مختار الصحاح»: ص ٣١٥-٣١٦، مادة: (سما).

(٢) «مختار الصحاح»: ص ٧٣٦، مادة: (و ل ي).

(٣) «مختار الصحاح»: ص ٣٤١، مادة: (شفع).

(٤) «مختار الصحاح»: ص ١٩٨، مادة: (د ب ر).

(٥) «معجم مقاييس اللغة»، مادة: (دَبَر)، ص ٣٧٤.

وبهذا المعنى قال الفيروز آبادي[١]، وصاحب (المصباح المنير)[٢]، والراغب[٣] رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

العروج: الصعود. قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر: ١٠]، وعرج في السُّلَّم: ارتقى[٤].

يقول ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: «العين والراء والجيم ثلاثة أصول، الأول يدل على مَيْل ومَيَل، والآخر على عدد، والثالث على سمو وارتقاء وهو المراد هنا، و العروج الارتقاء، يُقال: عَرَجَ يَعْرُج عُرُوجًا، والمَعْرَج المَصْعَد»[٥].

وبهذا المعنى قال الفيروز آبادي[٦]، وصاحب (المصباح المنير)[٧]، والراغب[٨]، والسمين الحلبي[٩] رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

الغيب: ما غاب عنك، تقول: غاب عنه كذا[١٠]، والشهادة من المشاهدة وهي المعاينة، وشهده بالكسر شُهُودًا أي حضره، فهو شاهد[١١]، وبين لفظي الغيب والشهادة طباق.

---

(١) «القاموس المحيط»: ص ٣٥٢.

(٢) «المصباح المنير» للفيومي: ص ١٠٠.

(٣) «معجم مفردات القرآن»، مادة: (دبر)، ص ١٨٥.

(٤) «مختار الصحاح»: ص ٤٢٢، مادة: (ع ر ج).

(٥) «معجم مقاييس اللغة»، مادة: (عرج)، ص ٧٦٨.

(٦) «القاموس المحيط»، مادة: (عرج)، ص ١٨١.

(٧) «المصباح المنير»، مادة: (عرج)، ص ٢٠٨.

(٨) «معجم مفردات القرآن»، مادة: (عرج)، ص ٣٦٢.

(٩) «عمدة الحفاظ»: جـ ٣، ص ٢٦٩١، مادة: (عرج).

(١٠) «مختار الصحاح»: ص ٤٩٥، مادة: (غ ي ب).

(١١) «مختار الصحاح»: ص ٣٤٩، مادة: (ش هـ د).

ثانيًا - الشرح وبيان المعنى العام للآيات الكريمة:

لما بين الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه رب العالمين، وأنه هو الذي نزل القرآن العظيم، على رسوله ﷺ لهداية الناس أجمعين، شرع في بيان بعض الأدلة الكونية التي تثبت الوحدانية، وتؤكد صدق الرسول ﷺ فيما جاء به من التوحيد والإيمان، وتقيم الأدلة على عظمة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال جل شأنه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [السجدة: ٤] المعنى: الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي خلق السموات بغير عمد، في غاية من الارتفاع والإحكام على غير مثال سابق، لحكمة بالغة سامية، كذلك بسط الأرض وسوَّاها، وقدَّر فيها أقواتها، كذلك أنزل القرآن الكريم يهدى به من يشاء إلى صراطٍ مستقيم، ليسمعوه ويتأملوه ويوقنوا أنه صادر من عند الله تعالى القادر الحكيم العليم.

وقد اختلف العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في مقدار هذه الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض: فقال بعضهم: هي أيام كأيام الدنيا.

وقد نقل هذا القول الإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو يذكر: «وإلى حمل اليوم على المتعارف، وتقدير المضاف ذهب جمع من العلماء وادعوا، وهو قول عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، والضحاك، ومجاهد واختاره ابن جرير الطبرى: أن ابتداء الخلق كان يوم الأحد، ولم يكن في السبت خلق أخذًا له من السبت بمعنى القطع لقطع الخلق فيه، ولتمام الخلق في يوم الجمعة واجتماعه فيه سمي بذلك»[1].

(١) ينظر: «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص١١٦.

ومن العلماء أيضًا من يرى أن المراد ستة أوقات، أو مقدار ستة أيام، وهذا القول ذكره الآلوسي أيضًا حيث قال[١]: «في ستة أوقات، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٦]، أو مقدار ستة أيام، كقوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، فإن المتعارف أن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها، ولم تكن هي حينئذ».

وقد استحسن الإمام الرازي أن المراد بها ستة أحوال فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد ذكرنا أن قوله تعالى في ستة أيام إشارة إلى ستة أحوال في نظر الناظرين، وذلك لأن السموات والأرض وما بينهما ثلاثة أشياء، ولكل واحد منها ذات وصفة، فنظر إلى خلقه ذات السموات حالة، ونظر إلى خلقه صفاتها أخرى، ونظر إلى ذات الأرض، وإلى صفاتها كذلك، ونظر إلى ذوات ما بينهما وإلى صفاتها كذلك فهي ستة أشياء في ستة أحوال»[٢].

ومن العلماء من يرى أن هذه الأيام ليست كأيام الدنيا، وأن علمها عند الله تعالى

ومن هؤلاء العلماء الدكتور/ محمد محمود حجازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول:** «... في ستة أيام الله أعلم بمقدارها، أيام عند الله لا كأيام الدنيا المقدرة بدورة الأرض أمام الشمس، وهذه إشارة إلى التدبير والإحكام في الخلق...»[٣].

والشيخ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول:** «وليست هي قطعًا من أيام هذه الأرض التي نعرفها، فأيام هذه الأرض مقياس زمني ناشئ من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة، تؤلف ليلًا ونهارًا على هذه الأرض الصغيرة الضئيلة... وقد وجد هذا المقياس الزمني بعد وجود الأرض والشمس، وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه

(١) «تفسير الآلوسي»، جـ ٢١، ص١١٦.

(٢) «تفسير مفاتيح الغيب»، جـ ١٦، ص ٥٥٤.

(٣) «التفسير الواضح». د/ محمد محمود حجازي، المجلد الثالث، جـ ٢١، ص٥٨.

الأرض الصغيرة الضئيلة... أما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة في القرآن فعلمها عند الله، ولا سبيل لنا إلى تحديدها أو تعيين مقدارها، فهي من أيام الله التي يقول عنها: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، تلك الأيام الستة قد تكون ستة أطوار مرت بها السموات والأرض، وما بينهما حتى انتهت إلى ما هي عليه، أو ستة مراحل في النشأة والتكوين، أو ستة أدهار لا يعلم ما بين أحدها والآخر إلى الله، وهي على أية حال شيء آخر غير الأيام الأرضية التي تعارف عليها أبناء الفناء، فلنأخذها كما هي غيبًا من غيب الله، لا سبيل إلى معرفته على وجه التحديد، إنما بقصد التعبير إلى تقرير التدبير والتقدير في الخلق، وفق حكمة الله وعلمه وإحسانه لكل شيء خلقه في الزمن والمراحل والأطوار المقدرة لهذا الخلق العظيم»[(١)].

هذه هي أقوال بعض العلماء في هذا المجال، وما أجمل قول الأستاذ سيد قطب في هذا الشأن.

والرأي المقبول الذي ترتاح له النفس هو أن مقدار هذه الأيام لا يعلمه إلا الله العليم الخبير.

أما الحكمة في خلق السموات والأرض وما بينهما في الستة أيام فهي حكمة يعلمها الله تعالى ويحدثنا عن ذلك الشيخ عبد الكريم الخطيب فيقول: «أما حصر الخلق في الستة الأيام هذه فذلك شأن من شئون الله في خلقه، لا يُسأل عما يفعل ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]»[(٢)].

---

(١) ينظر: «تفسير في ظلال القرآن»: المجلد الخامس، جـ ٢١، ص ٢٨٠٦.

(٢) «التفسير القرآني للقرآن»: د/ عبد الكريم الخطيب: المجلد الثالث، جـ ٢١، ص ٦٠٥.

وفى الحديث الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي، فقال: «إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش في اليوم السابع، فخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد العصر، وخلقه من أديم الأرض أحمرها وأسودها، وطيبها وخبيثها، ومن أجل ذلك جعل الله من بني آدم الطيب والخبيث»[(١)].

هذا وبعد أن ذكَّرَ الله تعالى عباده بعظمته وقدرته وأنه وحده الذي خلق السموات والأرض في مدة يسيرة قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤].

والعرش في اللغة: سرير الملك[(٢)]، أما معناه فقد ذكر العلماء أنه الجسم المحيط بسائر الأجسام، وأنه مخلوق عظيم من مخلوقات الله تعالى.

فيقول الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو في المشهور: الجسم المحيط بسائر الأجسام، وهو ملك الأملاك، سمي به إما لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير الملك فإنه يقال له عرش، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ لأن الأمور والتدبيرات تنزل منه، ويكنى به عن العز والسلطان والملك»[(٣)].

أما كيفية الاستواء فليست مناطًا للحديث عند العلماء، غير أنهم تكلموا في المعنى المراد من الاستواء، فمنهم من يرى أن استوى بمعنى (استقر)، ومنهم من يرى أن استوى بمعنى (استولى)، ومنهم من يرى أن الاستواء أمر لا يعلمه إلا الله تعالى، وهو غير معلوم للخلق، وأن الأسلم هو تفويض علم ذلك إلى الله تعالى.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه»، في كتاب: «صفة الجنة والقيامة والنار»، باب: (ابتداء الخلق، خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ): جـ ٢، ص ٥١٦-٥١٧.

(٢) «مختار الصحاح»، مادة (عرش): ص ٤٢٣.

(٣) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٨٠.

والإمام الرازي قد عرض لهذا الأمر وأطال فيه الحديث، وها أنا ذا أنقل بعض أقواله على جهة الاختصار، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعلم أن مذاهب العلماء في هذه الآية وأمثالها على وجهين: أحدهما - ترك التعرض إلى بيان المراد وثانيهما - التعرض إليه، والأول أسلم، وإلى الحكمة أقرب.

وصفة الاستواء مما لا يجب العلم بها، فمن ترك التعرض إليه لم يترك واجبًا، وأما من يتعرض إليه فقد يخطئ فيعتقد خلاف ما هو عليه. ثم تعرض الرازي لمعنى (استوى) حسب ما ورد فيها من أقوال العلماء، ويمكننا القول: أن الإمام الرازي قد وفى هذا الموضوع حقه»[(١)].

أما الإمام الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكره لأقوال العلماء يقول: «وأنت تعلم أن المشهور من مذهب السلف في مثل ذلك تفويض المراد منه إلى الله تعالى فهم يقولون: استوى على العرش على الوجه الذي عناه سبحانه»، منزهًا عن الاستقرار والتمكن، وأن تفسير الاستواء بالاستيلاء تفسير مرذول، إذ القائل به لا يسعه أن يقول كاستيلائنا، بل لابد أن يقول: هو استيلاء لائق به عَزَّوَجَلَّ، فليقل من أول الأمر هو استواء لائق به جَلَّوَعَلَا»[(٢)].

وللدكتور/محمد محمود حجازي رَحِمَهُ اللَّهُ كلام نفيس في هذا الموضوع فيقول: «استواء يليق بعظمته وجلاله، وأنه لا يحده زمان ولا مكان، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، وهو رأى من يفوض أمثال هذا لله وهم السلف، أما الخلف فيقولون: استوى على ملكه يدبر أمره، ويحكم سياسته فالاستواء كناية عن الاستيلاء والتدبير»[(٣)].

---

(١) «تفسير مفاتيح الغيب»: جـ ٦، ص ٥٥٤ وما بعدها.

(٢) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٨٦.

(٣) «التفسير الواضح»: جـ ٢١، ص ٨٥.

ومن خلال ما تقدم من أقوال بعض العلماء في هذا المجال يتضح لنا أن الرأي الذى تطمئن له النفس هو: أن المراد من الاستواء: استواء يعلمه الله تعالى، ويليق بعظمته وجلاله، من غير تمثيل، ولا تشبيه ولا مكان، وأن تفويض علم ذلك إلى الله تعالى هو الأسلم والأليق بكل مؤمن يؤمن بالله إيمانًا يقينيًا كما هو رأي السلف، والله أعلم.

ثم بين الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنه هو الولي والناصر لجميع المخلوقات، وأنه لا ولي ولا ناصر ولا معين غيره، فقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، أي: أنه عظمت قدرته هو الخالق لجميع الأشياء، القادر على كل شيء، فإذا كان الأمر كذلك، وأنه تعالى المسيطر على السموات والأرض وما بينهما وعلى العرش، وهو خالق الجميع، فأين يكون الولي غيره، وأين هو الشفيع الذي يستطيع الخروج على سلطانه، وبهذا يتأكد أنه ليس هناك أيها الناس ولي لخلقه سواه، وليس هناك ناصر يمنعكم من عذابه، وأيضًا لا شفيع يشفع لكم عنده إلا من بعد إذنه، ولكن هو الذي يتولى مصالحكم ويدبر أموركم.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تسمعون وتتدبرون فتؤمنوا بالله وحده.

ثم لما بين الحق سبحانه أنه وحده الذي خلق السماوات والأرض وجميع المخلوقات أراد سبحانه أن يبين للناس أنه هو الذي يملك الأمر وحده فيدبره بقدرته، وهذا التدبير يكون في السماء، ثم بعد ذلك ينزل على الأرض، ثم يرجع هذا الأمر والتدبير إليه تعالى.

هذا وقد كثرت أقوال العلماء في المراد من (تدبير الأمر) وعروجه، وكذا المراد من اليوم المشار إليه بألف سنة، فالإمام ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة يتجه إلى المعنى العام بالنسبة للتدبير والعروج، وكذا لليوم المذكور في الآية الكريمة فيقول: وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥] أي يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق السماء الدنيا، ومسافة ما بينهما وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسمك السماء خمسمائة سنة[١].

والإمام الرازي يشير إلى المعنى الذي ذكره ابن كثير إلا أنه يرى أن الأعمال الصالحة هي التي تعرج فيقول: قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ لما بيّن الله تعالى الخلق، بيّن الأمر كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] والعظمة تتبين بهما، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ معناه والله أعلم: أن أمره ينزل من السماء على عباده، وتعرج إليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الأمر، فإن العمل أثر الأمر، وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فيه وُجُوهٌ: (أحدها) أن نزول الأمر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون، وهو في يوم؛ فإن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، فينزل في مسيره خمسمائة سنة، ويعرج في مسيرة خمسمائة سنة فهو مقدار ألف سنة»[٢].

ويقول الإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ قيل: أي أمر الدنيا وشئونها، وأصل التدبر: النظر في دابر الأمر، والتفكر فيه ليجيء محمود العاقبة وهو في حقه عَزَّوَجَلَّ مجاز عن إرادة الشيء على وجه الإتقان، ومراعاة الحكمة والفعل مضمن معنى الإنزال... أي يريده تعالى على وجه الإتقان، ومراعاة الحكمة منزلًا له من السماء إلى الأرض، وإنزاله من السماء باعتبار أسبابه، فإن أسبابه سماوية من الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وغيرهم، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ أي يصعد ويرتفع ذلك الأمر بعد تدبيره ﴿إِلَيْهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ، وهذا العروج مجاز عن ثبوته في علمه تعالى- أي تعلق علمه سبحانه به تعلقا تنجيزيًا بأن يعلمه جَلَّوَعَلَا موجودًا بالفعل، أو عن كتابته في صحف الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ القائمين بأمره

(١) «تفسير ابن كثير»: جـ ٣، ص ٧٥٤.

(٢) «تفسير مفاتيح الغيب»: جـ ٢١، ص ٥٥٧.

عَزَّوَجَلَّ موجودا كذلك ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي: في برهة متطاولة من الزمان، فليس المراد حقيقة العدد، وعبر عن المدة المتطاولة بالألف؛ لأنها منتهى المراتب، وأقصي الغايات، ثم يقول: ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤] بناءً على أحد الوجهين فيه لتفاوت الاستطالة على حسب الشدة، أو لأن ثم خمسين موطنًا كل موطن ألف سنة»[(١)].

والدكتور محمد محمود حجازي أيضًا يشير إلى هذا المعنى، ويلخص المراد بالنسبة لتفسير الآية الكريمة فيقول: «الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدبر أمر الدنيا، وينظم شئونها وأحوالها التي تقع فيها، كل ذلك موافق لقضائه السابق، وجار على وفق إرادته الأزلية التي قضت بهذا النظام الموجود على هذا الترتيب، وكان تدبير الأمر ونظامه مبتدئًا من السماء ومنهيًا إلى الأرض؛ لأن التدبير يرجع إلى أمور سماوية ومنوط علوية وهو ينتهي بآثاره إلى الأرض، ويظهر عمليًا على وجهها، كل ذلك إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر، ويصعد إليه ليحكم فيه بحكمة العدل يوم القيامة، يوم مقداره ألف سنة مما تعدون، وقد جاء في سورة ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ ﴾ كان مقداره خمسين ألف سنة، والمخلص من هذا أن يوم القيامة فيه أيام، فمنها ما مقدار خمسون ألف سنة، ومنها مقداره ألف سنة»[(٢)].

وللإمام الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ تعقيب حسن في هذا المقام، فهو بعد أن نقل ماذكره المفسرون وأطنب في هذا الشأن يقول: «إن الآية من المتشابه، وأعتقد أن الله تعالى يدبر أمور الدنيا وشئونها، ويريدها متقنة وهو سبحانه مستو على عرشه، وذلك هو التدبير من جهة العلو، ثم يصعد خبر ذلك مع الملك إليه عَزَّوَجَلَّ إظهارًا لمزيد عظمته جلت عظمته

(١) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٢٠-١٢١.

(٢) «التفسير الواضح»: جـ ٢١، ص ٨٥ وما بعدها.

وعظيم سلطنته، إلى حكم هو جَلَّوَعَلَا أعلم بها، وكل ذلك بمعنى لائق به تعالى مجامع للتنزيه، مباين للتشبيه حسبما يقوله السلف في أمثالها»[١].

هذا هو تعقيب الإمام الآلوسي، ومن خلاله نرى أن الأفضل والأسلم مرد علم هذا التدبير، وكذلك مقدار اليوم المذكور في الآية الكريمة إلى الله تعالى، ولا داعي للخوض في مثل هذه الأمور.

وأقوال المفسرين رَحِمَهُمُ اللَّهُ فيه متقاربة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يدبر أمر عباده وينفذه حسب مقتضى حكمته سبحانه.

والمعنى: أن الخالق جَلَّوَعَلَا يدبر أمر الخلائق جميعًا في العالم العلوي والسفلي، لا يغيب عنه شيء، ولا يهمل شأن أحد إلى يوم القيامة، وكيفية هذا التدبير لا يعلمه إلا الله جَلَّوَعَلَا.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، أي: ذلك الذي يدير أمور الخلق وشئونهم هو الله العليم بكل الأشياء، الذي لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو العزيز الذي لا يغالب، كما أنه سبحانه الرحيم بعباده المؤمنين الطائعين، وهذا هو منتهى الكمال، وفي هذا الوصف إشارة إلى أن عزته سبحانه عزة رحمة وإحسان، وليست عزة تسلط وقهر، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

يقول الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الكلام معنى التهديد والوعيد، أي: أخلصوا أفعالكم وأقوالكم فإني أجازي عليها، ومعنى الغيب والشهادة ما غاب عن الخلق وما حضرهم»[٢].

---

(١) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٢٢.

(٢) «تفسير القرطبي»: جـ ١٤، ص ٨٩.

ثالثًا - ما يُستفاد من الآيات الكريمة من الأحكام والعبر:

❁ بيان عظمة الله تعالى وقدرته وأنه هو الخالق للسماوات والأرض وما بينهما، وأنه لا إله غيره ولا خالق سواه.

❁ وجوب الإيمان بأن استواء الله تعالى على العرش هو: استواء يليق بعظمته وجلاله وتفويض علم ذلك إلى الله تعالى.

❁ وجوب الإيمان بأن العرش مخلوق عظيم من مخلوقات الله تعالى، وأنه لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى.

❁ الاعتقاد الجازم بأنه لا ولي ولا ناصر غير الله تعالى، كما أنه لا شفيع إلا من بعد إذنه فهو المدبر والمتصرف في جميع الكائنات.

❁ أن أمور الخلق كلها بيد الله تعالى يدبرها وحده، ويتصرف فيها كيف يشاء حسب علمه الأزلي.

❁ أن جميع الأعمال تصعد إليه تعالى إلى يوم القيامة ليفصل فيها فيجازى كلًا حسب عمله.

❁ أن كيفية التدبير بالنسبة لله تعالى، وتحديد اليوم المذكور في الآية لا يعلمهما إلا الله تعالى، وأن الأسلم التوقف في مثل هذه الأمور.

❁ أنه تعالى عزيز لا يقهر، كما أنه رحيم بخلقه، ورحمته وسعت كل شيء.

(٣) معجزة الخلق والإبداع

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٧-٩].

أولًا - المباحث الإعرابية والبلاغية:

السلالة في اللغة: ما نسل من الشيء القليل[١].

وقرأ **الجمهور:** (خَلَقَهُ) بفتح اللام على أنه فعل ماض صفة لشيء فهو في محل جر، أو صفة المضاف فيكون في محل نصب.

وقرأ **ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر:** (خَلْقَهُ) بسكون اللام، وفي نصبه أوجه، الأول: أن يكون بدلًا من كل شيء بدل اشتمال، والضمير عائد على كل شيء، وهذا هو المشهور[٢].

وقيل: هو مفعول ثان لأحسن على تضمنه معنى أعطى، أي أعطى كل شيء خلقه اللائق به بطريق الإحسان والتفضل، وقيل هو مفعوله الأول، و(كل شيء) مفعوله الثاني، والخلق بمعنى المخلوق، وضميره لله سبحانه[٣].

وقرأ **الزهري:** (وبدا خلق الإنسان) بغير همز، وهي قراءة شاذة[٤].

---

(١) «غريب القرآن» للسجستاني: ص ١٤٨.

(٢) ينظر: «فتح القدير»: جـ ٦، ص ٢٤١، و«الكشف عن وجوه القراءات السبع» لمكي: جـ ٢، ص ١٩١.

(٣) «تفسير أبي السعود»: جـ ٤، ص ١٩٦.

(٤) «المحتسب في شواذ القراءات» لابن جني: جـ ٢، ص ١٧٣.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، والأصل (وجعل له)، والنكتة أن الخطاب إنما يكون مع الحي، فلما نفخ تعالى الروح فيه حسن خطابه مع ذريته، وسمي الإنسان إنسانًا لأنه عهد إليه فنسي[1].

ثانيًا - الشرح وبيان المعنى العام للآيات الكريمة:

بعد أن أثبت الحق جَلَّوَعَلَا الدليل على قدرته ووحدانيته بالنسبة للآفاق في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وبين أنه المدبر لأمور الخلق، عالم بها لا يغيب عنه شيء، أتبع ذلك بما يدل على قدرته وعظمته ووحدانيته بالنسبة للأنفس فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: أنه جلت حكمته، أحسن كل شيء في خلقه على ما اقتضته حكمته تعالى على نظام دقيق وترتيب محكم.

يقول الشيخ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها: «اللَّهُمَّ إن هذا هو الحق الذي تراه الفطرة وتراه العين، ويراه القلب، ويراه العقل، الحق المتمثل في أشكال الأشياء ووظائفها، وفي طبيعتها منفردة، وفي تناسقها مجتمعة، وفي هيآتها وأحوالها ونشاطها وحركاتها، وفي كل ما يتعلق بوصف الحسن والإحسان من قريب أو من بعيد،... ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ فيوقظ القلب لتتبع مواضع الحسن والجمال في هذا الوجود الكبير»[2].

ويقول الشيخ عبد الكريم الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من عزة الله ورحمته قيام هذا الوجود على أحسن نظام وأكمله، والمراد بالحسن هنا ليس مجرد حسن الصورة، وإنما هو الحسن الذي يتجلى في إحكام الصنعة، ودقة التنسيق، وروعة التأليف، وتجاوب النغم، ووحدة الغاية، وإن اختلفت الاتجاهات، وتعددت الأنغام ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ

(١) «مختار الصحاح»: ص ٢٨.

(٢) «تفسير في ظلال القرآن»: جـ ٢١، ص ٢٨٠٩.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ [الملك: ٣]، فدبيب النملة على مسارها، وجريان الشمس في فلكها، وتدفق النهر في مجراه، وحفيف الأوراق على أشجارها، وكل همة، وكل حركة في هذا الوجود في أرضه وسماواته، تؤلف جميعًا لحنًا علوي النغم يروع القلب جلاله، ويأسر الفؤاد حسنه وجماله، سواء أنظر الإنسان إليها في اجتماعها أو افتراقها، وسواء استعرضها على تفاصيلها أو إجمالها»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾، فبعد أن بين الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه أحسن خلق كل شيء، وكان من ذلك الحسن خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من طين؛ لذلك زُيِّلتِ الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ أي: أنه تعالى أحسن كل شيء في خلقته، وأنه تعالى خلق آدم أبًا للبشر من طين.

هذا وقد ذكر أكثر المفسرين رَحِمَهُمُ اللَّهُ أن المراد بالإنسان المخلوق من طين هو سيدنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يقول الإمام الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيل المراد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه خلق من طين»[(٢)].

وبهذا قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا[(٣)].

والإمام الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر أن المراد بها خلق آدم من طين، أو خلق جنس الإنسان فيقول: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ أي: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو بدأ خلق هذا الجنس المعروف ﴿مِن طِينٖ﴾ حيث بدأ خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خلقًا منطويًا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواءً إجماليًا منه»[(٤)].

---

(١) «التفسير القرآني للقرآن»: جـ ٢١، ص ٦٠٩.

(٢) «تفسير مفاتيح الغيب»: جـ ١، ص ٥٥٩.

(٣) «تفسير ابن كثير»: جـ ٣، ص ٤٥٧.

(٤) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٢٣.

أما عن التربة التي خلق منها آدم فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض، والأحمر، والأسود وبين ذلك، والخبيث، والطيب، والسهل، والحزن وبين ذلك»(١).

وبالنسبة لصفة خِلقة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد أخرج الإمام البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يجيبونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه رحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد الآن»(٢).

أما عن اليوم الذي خلق فيه آدم فقد وردت أحاديث صحيحة تبين أنه يوم الجمعة ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها»(٣).

هذا وربما يظن ظان أن خلق الإنسان من طين فيه تعارض مع قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ على أساس أن الطين مادة هينة لا يُعبأ بها، أو أنه لا يكون لها اهتمام في عين الناظر، والإجابة على هذا الظن هي: أن هذا الطين منه عَمَّرَ الله الأرض، وملأ الحياة بمن خلقوا من هذا الطين، ولذلك ينبغي للعاقل أن لا ينظر إلى هذا الطين نظرة إهانة أو إزدراء.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: جـ ٤، ص ٤٠٠.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» بهامش «فتح الباري»، في كتاب «الاستئذان»، باب: (بدء السلام)، جـ ١١، ص ٣ وما بعدها.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه»، في كتاب «الجمعة»، باب: (فضل يوم الجمعة)، جـ ١، ص ٢٣٩.

وبعد أن بين الله تعالى: خِلقة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أتبع ذلك ببيان خِلقة ذريته، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ أي: جعل ذريته يتناسلون من خلاصة ماء حقير ضعيف ممتهن، وهو المني الذي يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وسميت الذرية نسلًا لأنها تنسل وتنفصل منه.

ثم يتابع القرآن الكريم حديثه عن خلق الإنسان، فيقول الحق جل ثناؤه: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ والمعنى: أنه تعالى قَوَّمَ أعضاءه وصَورهَا، وعدل خلقته في رحم أمه، هذا على رأي من يرى أن الضمير في قوله تعالى: ﴿سَوَّىٰهُ﴾ يعود على أفراد الذرية، وأصل التسوية جعل الأجزاء متساوية، وهناك من يرى أن مرجع الضمير إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بمعنى تسوية خلقته، أي خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مستويًا معتدلًا.

يذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ﴾ يعني آدم لما خلقه من تراب خلقه سويًا مستقيمًا»[(١)].

أما الفخر الرازي فيستبعد عود الضمير إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول: «ويبعد أن يقال: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ عائد إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأن كلمة ثم للتراخي، فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة، وذلك بعد خلق آدم[(٢)]».

وإضافة الروح إلى الله تعالى إضافة تشريف لهذا الإنسان، وإشعار بأنه خلق عجيب، وصنع بديع، وله شأن عظيم.

---

(١) «تفسير ابن كثير»: جـ٣، ص ٤٥٧.

(٢) «تفسير مفاتيح الغيب»: جـ٦، ص ٥٥٨.

يقول الإمام أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإضافة الروح إليه تعالى تشريفًا له، وإيذانًا بأنه خلق عجيب، وصنع بديع، وأنه له شأنًا له مناسبة إلى حضرة الربوبية، وأن أقصى ما تنتهي إليه العقول البشرية من معرفته هذا القدر الذي يعبر عنه تارة بالإضافة إليه تعالى، وأخرى بالنسبة إلى أمره تعالى كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥][(١)].

ومما يؤكد لنا أن إضافة الروح إلى الله تعالى إضافة تشريف ما نراه من إضافة بعض المخلوقات العظيمة إليه تعالى، ومن ذلك إضافة (البيت الحرام) في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣].

يقول الإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أضاف الروح إليه تشريفًا له كما في بيت الله تعالى، وناقة الله تعالى، وإشعارًا بأنه خلق عجيب، وصنع بديع، وقيل: أضافه لذلك إيماء على أن له شأنًا له مناسبة إلى حضرة الربوبية»[(٢)].

ومما تجدر الإشارة إليه أن المراد بنفخ الروح: هو جعلها متعلقة بالبدن، أي متجردة عنه، أو هو على حقيقة النفخ، بمعنى سريانها في الجسد.

يقول الإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونفخ الروح قيل: مجاز عن جعلها متعلقة بالبدن، وهو أوفق بمذهب القائلين بتجرد الروح، وأنها غير داخلة في البدن من الفلاسفة وبعض المتكلمين كحجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة، وقيل: هو على حقيقته، والمباشر له الملك الموكل على الرحم، وإليه ذهب القائلون بأن الروح جسم لطيف كالهواء سار في البدن سريان ماء الورد في الورد، والنار في الجمر، وهو الذي تشهد له ظواهر الأخبار»[(٣)].

---

(١) «تفسير أبي السعود»: جـ٧، ص ٨١.

(٢) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٢٤.

(٣) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٢٤.

ثم ذكر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ والمعنى: أن الله تعالى بعد أن شرف الإنسان بنفخ الروح فيه، وشرفه أيضًا بإضافة الروح إليه، بين تعالى أنه أكرم هذا الإنسان بأن جعل له سمعًا وبصرًا وقلبًا، أي خلق لكم هذه الحواس وهي السمع لتسمعوا به الأصوات، والبصر لتبصروا به المرئيات، والعقل لتدركوا به الهدى والحق، و(الفؤاد) قد يعبر عنه بالقلب تارة، وقد يعبر عنه بالعقل تارة أخرى.

جاء في (مختار الصحاح): (الفؤاد) القلب، وجمعه (أفئدة)[1].

والحكمة من ورود الآية الكريمة على هذا الترتيب وتقديم السمع على البصر يحدثنا عنها الإمام الفخر الرازي فيقول: «الترتيب في السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة، وذلك لأن الإنسان يسمع أولًا من الأبوين أو الناس أمورًا فيفهمها، ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الأمور ويجربها، ثم يحصل له بسبب ذلك إدراك تام، وذهن كامل فيستخرج الأشياء من قلبه»[2].

ويقول الإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتقديم السمع لكثرة فوائده، فإن أكثر أمور الدين لا تعلم إلا من جهته، وأفرد لأنه في الأصل مصدر، وقيل للإيماء إلى أن مدركه نوع واحد وهو الصوت بخلاف البصر فإنه يدرك الضوء واللون والشكل والحركة والسكون، وبخلاف الفؤاد فإنه يدرك مدركات الحواس بواسطتها»[3].

---

(١) «مختار الصحاح»، باب: (الفاء)، مادة: (ف أ د)، ص ٤٨٨.

(٢) «تفسير مفاتيح الغيب»: جـ ٦، ص ٥٥٩.

(٣) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٢٤.

ثم زيلت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾، ونلاحظ في هذا التذييل إشارة عظيمة لكل صاحب قلبٍ وعقلٍ أن يقدر نعم الله تعالى عليه، خصوصًا نعمة السمع والبصر والعقل.

والمعنى: إن هذه النعم خلقت لمنفعتكم لتتمتعوا بها في شئونكم الدينية والدنيوية، من أجل ذلك وجب عليكم أن تشكروا الله على هذه النعم الجليلة التي لا تصدر إلا منه، وهذا الشكر يقتضي صرف كل نعمة من هذه النعم إلى ما خلقت له، فتدركوا بالسمع كل ما يدل على توحيد الله وعظمته وقدرته، وتدركوا بأبصاركم آيات الله الكونية الشاهدة على عظمة الله وتوحيده، كما أنكم تدركون بالفؤاد حقيقة ما أدركتموه بالسمع والبصر، ولكنكم لم تفعلوا ذلك، بل قابلتم هذه النعم بالإعراض وعدم الشكر، كما قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

يقول الإمام أبو السعود رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ الجعل إبداعي واللام متعلقة به، والتقديم على المفعول الصريح لما مر مرات من الاهتمام بالمقدم، والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم، أي خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا أنها مع كونها في أنفسها نعمًا جليلة لا يقادر قدرها وسائل إلى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم، وتشكروها بأن تصرفوا كلًا منها إلى ما خلق هو له، فتدركوا بسمعكم الآيات التنزلية الناطقة بالتوحيد والبعث، وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما، وتستدلوا بأفئدتكم على حقيقتهما، وقوله تعالى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلي»[(١)].

(١) «تفسير أبي السعود»: جـ ٤، ص ١٩٦.

ويقول الدكتور محمد محمود حجازي في هذا المعنى ما نصه: «وجعل لكم أيها الناس سمعًا وبصرًا وقلوبًا وأفئدة لعلكم تنظرون فتدركون الأسرار، وتقفون على الحكم والأخبار، ولاشك أن هذه طرق العلم الصحيح، والمعرفة الصادقة، ولكن قليلًا ما تعرفون فتشكرون بل ران على قلوبهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فهم لا يهتدون وقليلًا ما يشكرون»[1].

ثالثًا - ما يُستفاد من الآيات الكريمة من الأحكام والعبر:

- أن الله تعالى أحسن كل شيء في خلقته حسبما اقتضته حكمته، وليس هناك شيء غير حسن من مخلوقات الله تعالى.
- أن سيدنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أبا البشر خلق من طين، أما ذريته فإنهم يتناسلون من (المني)، وهو المعبر عنه بالماء المهين.
- تكريم الله تعالى لبني آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث سوى خلقتهم، وقوّمَ أعضاءهم، وعدّل خلقتهم، ونفخ فيهم من روحه، فكان ذلك تشريفًا لهم.
- أن الله تعالى أنعم على الإنسان بنعمة السمع والبصر والعقل، وهي نعم عظيمة يجب شكر الله عليها.
- أن طبيعة الإنسان في الأغلب كفران النعم وعدم شكرها، وقليل من العباد هو الشكور.

---

(١) «التفسير الواضح»: جـ ٣، ص ٥٩.

(٤) من شبه المنكرين للبعث

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١٠-١١].

أولًا - المباحث الإعرابية والبلاغية:

ضللنا: أي بطلنا وصرنا ترابًا فلم يوجد لنا لحم ولا دم ولا عظم، ومنه ضل الماء في اللبن، إذا ذهب، وتقول لما غاب في الأرض ضل، والمراد: هلكنا وصرنا ترابًا[١].

يقول ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الضاد واللام أصل صحيح يدل علي معنى واحد، وهو ضياع الشيء وذهابُه في غير حقه، يقال: ضَلَّ يَضَلّ ويَضِلّ لغتان، وكلُّ جائر عن القصد ضال»[٢].

ويقول الفيروز آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضَلَّ يَضِلُ: ضاع ومات وصار ترابًا وعظامًا وخفي وغاب»[٣]، وبهذا المعنى قال صاحب (المصباح المنير)[٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعن مادة (صلَّ) يقول ابن فارس: «الصاد واللام أصلان، أحد هما: يدل علي ندي وماء قليل، وهو المراد هنا، والآخر: علي صوت، فأما الأول: الصَّلة: وهي الأرض تسمي الثري لِنَداها علي أن من العرب من يسمي الصَّلة التراب الندي، ومن الباب: صَلَّ اللحم: إذا تغيرت رائحته وهو شواء أو طبيخ، وإنما هو من الصَلةَّ كأنه دُفِن في الصَلَّة فتغير»[٥].

---

(١) «غريب القرآن»: ص ٩-١٠، و«التفسير الواضح»: جـ٣، ص ٦٠.

(٢) «معجم مقاييس اللغة»، مادة: (ضَلّ)، ص ٥٩٦.

(٣) «القاموس المحيط»: ص ٩٢٢.

(٤) «المصباح المنير» للفيومي، مادة: (ضَلّ)، ص ١٨٨.

(٥) «معجم مقاييس اللغة»، مادة: (صَلّ)، ص ٥٦٢.

ويقول الفيروز آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صَلّ السِّقاء صَليلًا: يَبِسَ، وصَلّ اللحم: أنْتَنَ، والصَلّة: الأرض، أو اليابسة، أو أرض لم تمطر، والصَلَّ: التراب الندي»[١]، وبهذا المعنى قال الراغب[٢]، والسمين الحلبي[٣].

يتوفاكم ملك الموت: من توفي العدد واستيفائه وتأويله أنه يقبض أرواحكم أجمعين، كما تقول: استوفيت من فلان مالي عنده إذا لم يبق لي عليه شيء[٤].

قرئ: ضللنا بالكسر من ضل يضل، كما قرئ (صللنا) بالصاد المهملة: أي أنتنا وتغيرنا من صَلَّ اللحم وأصَلَّ، وصَنَّ، وأَصنَّ: إذا أنتن وتغير[٥].

وقراءة (ضَلَلنَا) بفتح اللام، (وضلِلنا) بكسرها بمعنى واحد، والقراءتان تدلان

---

(١) «القاموس المحيط»: ص ٩٢٠.

(٢) «معجم مفردات القرآن»، مادة: (صَلّ)، ص ٣١٧ - ٣١٨.

(٣) «عمدة الحفاظ»، مادة: (صلصل)، جـ٢، ص ١٤٦٢.

(٤) «غريب القرآن»: ص ١٤٩.

(٥) قراءة (صَلَلنا) بالصاد المهملة، وفتح اللام، قراءة شاذة، يقول عنها ابن جني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قراءة علي وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وإبان بن سعيد بن العاص والحسن بخلاف بالصاد مكسورة اللام، وقرأ أيضًا بالصاد مفتوحة اللام - الحسن بخلاف.

وعن توجيه القراءة يقول ابن جني ﷺ: «صَلَّ اللحم يَصلُّ: إذا أنتن، وصَلَّ أيضًا يَصل بفتح الصاد - والكسر في المضارع أقوي اللغتين، والمعني: إذا دُفنَّا في الأرض، وصَلَّتْ أجسامنا، يقال: صَلَّ اللحم وأَصَلَّ صُلُولًا» أهـ ينظر: المحتسب في شواذ القراءات، ج٢، ص ١٧٣ - ١٧٤، ط. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية سنة ١٩٩٩ م.

ويقول ابن خالويه ﷺ «أإذا صَلِلنَا عن علي بن أبي طالب ﷺ والحسن، وصُلِلْنَا عن الحسن أيضًا أي: دُفِنَّا في الصَلَة وهي الأرض اليابسة» أ. هـ. ينظر: شواذ القرآن، ص ١١٩ - ط. مكتبة المتنبي بالقاهرة.

ويقول الشيخ عبد الفتاح القاضي: «قرأ الفراء: أي صرنا بين الصَّلةً وهي الأرضِ اليابسة الصُّلبة، أهـ ينظر: القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب، ص ٧٤، ط. الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية.

على تدرج وضع الإنسان، فإنه بعد موته يبدأ بالتَّتن، وبمرور الزمن يتحلل فيكون ترابًا يختلط بجنس الأرض ويضيع فيها، غير أن قراءة الفتح هي المشهورة الفصيحة.

وقرأ أبو حيوة (ضللنا) بضم الضاد المعجمة وكسر اللام، ورويت عن علي كرم الله وجهه، وقرأ ابن عامر (إذا) بترك الاستفهام، والمراد: الإخبار على سبيل الاستهزاء والتهكم، والعامل في (إذا) ما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وهو: نبعث: أو يجدد خلقنا... وقرأ نافع والكسائي ويعقوب (إنا) بترك الاستفهام على نحو ما ذكرنا آنفًا.

ثانيًا - الشرح وبيان المعنى العام للآيات الكريمة:

قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قال كفار مكة الذي ينكرون البعث والنشور أئذا غبنا في الأرض، وصرنا ترابًا مخلوطًا بتراب الأرض بحيث لا نتميز منه ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بمعنى أننا نبعث، أو يجدد خلقنا ونعود إلى الحياة مرة ثانية.

والاستفهام في قوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾، وقوله: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ استفهام إنكاري، غرضه الاستهزاء، فهو استبعاد للبعث مع الاستهزاء، وقد صدر هذا الاستبعاد من الكفار بالنسبة لعجزهم وقدرهم، ولكنه بالنسبة لقدرة الله الواحد القهار فهو ليس ببعيد، ولو كان هؤلاء الكفار عندهم مثقال ذرة من العقل والتفكير لما استبعدوا ذلك على الله تعالى، فهو الذي أنشأهم من العدم قبل أن يكونوا شيئًا، ومن المعلوم بدهيًا أن الإعادة أهون من الابتداء، فلو كان تفكيرهم سليمًا ما قالوا هذا.

يقول **الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي تمزقت أجسامنا، وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي أئنا لنعود بعد تلك الحال؟ يستبعدون ذلك، وهذا إنما

هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الله الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، ولهذا قال تعالى: ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾[١].

وقد رُوِيَ أن القائل لهذا القول أبي بن خلف، ولما كان بقية الكفار راضين بهذا القول أضيف القول إلى الجميع.

يقول الإمام أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيل: القائل أبي بن خلف، ولرضاهم بقوله أسند القول إلى الكل»[٢].

ثم زيلت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾، وفي هذا التذييل نرى لونًا آخر من رذائل هؤلاء الكفار وعنادهم، وهو كفرهم وجحودهم بالجزاء والحساب يوم القيامة، فهذا أشنع وأبلغ من الاستهزاء، فهم لم يكفروا بقضية البعث فقط، ولكنهم كافرون بأصل الثواب والعقاب يوم الدين.

يقول الإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾ إضراب وانتقال عن بيان كفرهم بالبعث إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه، وهو كفرهم بلقاء ملائكة ربهم عند الموت، وما يكون بعده جميعًا»[٣].

ثم بين سبحانه ما يواجهونه من الموت إلى العذاب، فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ والمعنى: قل: يقبض أنفسكم ملك الموت، ويعرف انتهاء آجالكم لا يفلت أحد منكم، والمشهور عند العلماء أن ملك الموت هو (عزرائيل)، وهو الذي

(١) "تفسير ابن كثير": جـ ٣، ص ٤٥٧.
(٢) «تفسير أبي السعود»: ج ٤، ص ١٩٧.
(٣) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٢٥.

يتولى قبض جميع الأرواح لا يفوته أحد، ولا يشغله شاغل عن قبض هذه الأرواح؛ لأن هذا عمله المطلوب.

يذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ما نصه:** «الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور قاله: قتادة، وغير واحد، وله أعوان»[1].

هذا وإن قال قائل: كيف نوفق بين هذه الآية التي ذكرت أن الوفاة تكون على يد ملك الموت، والآيات الأخرى الكريمة التي تفيد غير ذلك:

- ففي سورة ﴿ الزُّمَر ﴾ يقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا... ﴾ [الزُّمَر: ٤٢]

- وفي سورة ﴿ الأنعام ﴾ يقول سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١].

- وفي سورة ﴿ النحل ﴾ يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل: ٢٨].

والإجابة على ذلك: أنه لا منافاة، ولا تناقض، ولا تعارض بين هذه الآيات الكريمة؛ لأن الله تعالى هو المتوفى في الحقيقة، وذلك بخلق الموت، وكذلك هو الذي يأمر الملائكة بنزع الروح، وملك الموت له أعوان ينزعون الروح من الأظافر إلى الحلقوم، ثم يقبضها عزرائيل الذي هو ملك الموت، فلا منافاة إذن.

يقول الشيخ القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مذهب جمهور أصحابنا أن الروح جسم لطيف بخارى يتكون من ألطف أجزاء الأغذية ينفذ في العروق، حالة فيها، وكذلك للقلب وكذلك للكبد، وعندهم أن لملك الموت أعوانًا تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه، لولا

(١) «تفسير ابن كثير»: جـ ٢، ص ٤٥٨.

ذلك لتعذر عليه وهو جسم أن يقبض روحين في وقت واحد في المشرق والمغرب؛ لأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد.

قال أصحابنا: «ولا يبعد أن يكون الحفظة الكاتبون هم القابضون للأرواح عند انقضاء الأجل. قالوا: وكيفية القبض ولوج الملك من الفم إلى القلب لأنه جسم لطيف هوائي لا يتعذر عليه النفوذ في المخارق الضيقة فيخالط. الروح التي هي كالشبهة بها لأنها بخارى، ثم يخرج من حيث دخل وهى معه، وإنما يكون ذلك في الوقت الذي يأذن الله تعالى له فيه وهو حضور الأجل، فألزموا على ذلك أن يغوص الملك في الماء مع الغريق ليقبض روحه تحت الماء فالتزموا ذلك، وقالوا: ليس بمستحيل أن يتخلل الملك الماء في مسام الماء، فإن فيه مسام ومنافذ وفى كل جسم على قاعدتهم في إثبات المسام في الأجسام، قالوا ولو فرضنا أنه لا مسام فيه لم يبعد أن يلجه الملك فيوسع لنفسه مكانًا، كما يلجه الحجر والسمك وغيرهما، وكالريح الشديدة التي تقرع ظاهر البحر فتقعره وتحفره، وقوه الملك أشد من قوه الريح». اهـ

ثم يختم القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قائلًا:** «والأولى الوقوف فيما لم تعلم كيفية عند متلوه وعدم مجاوزته أدبا عن التهجم على الغيب، وتورعا عن محاوله ما لا يبلغ كنهه، وأسوة بما مضى عليه من لم يخض فيه، وهم الخيرة والأسوة، والله علم»[1].

والإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يشير إلى هذا المعنى، وأنه لا تعارض بين الآيات السابقة، غير أنه لا يرتاح للأقوال التي تفيد تعدد ملك الموت، فيعقب على ذلك قائلًا:** «والذي ذهب إليه الجمهور أن ملك الموت لمن يعقل وما لا يعقل من الحيوان واحد، وهو عزرائيل، ومعناه عبد الله فيما قيل، نعم له أعوان كما ذكرنا»[2].

---

(١) «تفسير محاسن التأويل»: جـ ١٣، ص ٤٨١٣.

(٢) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٢٤.

والقول الذي تطمئن إليه النفس هو أن ملك الموت واحد لجميع المخلوقات كما ذهب الجمهور، ولأنه لم ترد أخبار صحيحة تفيد تعدد ملك الموت.

ويرى الشيخ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا داعي للوقوف على اسم ملك الموت وتعيينه، وكذا معرفة كيفية الوفاة؛ لأن ذلك من المغيبات التي لا يعلمها إلا الله تعالى، فيقول: «أما ملك الموت من هو؟ وكيف يتوفى الأنفس؟ فهذا من غيب الله الذي نتلقى خبره من هذا المصدر الوثيق الأكيد، ولا زيادة على ما نتلقاه من هذا المصدر الوحيد»[1].

ثالثًا - ما يُستفاد من الآيات الكريمة من الأحكام والعبر:

- أن البعث حق لا شك فيه، وأن منكره كافر، وأن الإعادة أهون من الابتداء بالنسبة لله تعالى.
- الموت حق، وأنه لا يفلت منه أحد، وأن مآل الخلق جميعًا إلى الله تعالى.
- ملك الموت هو الذي يتولى وفاة المخلوقين جميعهم بأمر الله تعالى، وأنه لا تعارض بين الأخبار التي وردت بنسبة الموت إلى الله تعالى، أو إلى الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.
- أنه لا داعي للبحث عن اسم ملك الموت، أو عن كيفية الوفاة؛ لأنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله تعالى، والأسلم تفويض علم ذلك إلى الله تعالى.

(١) «تفسير في ظلال القرآن»: جـ ٢١، ص ٢٨١١.

(٥) من مشاهد يوم القيامة

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

[السجدة: ١٢-١٤]

أولًا - المباحث الإعرابية والبلاغية:

نكس: أصل النكس: قلب الشيء على وجهه، وجعل أعلاه أسفله.

يقول ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النون والكاف والسين أصل يدل علي قلب الشيء، منه النَّكس: قلبك شيئًا علي رأسه»(١)، وبهذا المعنى قال الفيروز آبادي(٢)، وصاحب (المصباح المنير)، والراغب(٣) رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

ويقول السمين الحلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل النكس: القَلْبُ، وهو أن تجعل أعلاه أسْفَلَهُ، بأن تجعل رِجْلاَ الإنسان إلى فوق، ورأسه إلى تحت، فَبُولغَ في وصف المجرمين بذلك»(٤).

وحذف جواب (لو) هنا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ للتهويل، أي: لرأيت أمرًا عظيمًا مَهُولًا تقشعر منه الأبدان.

وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ إضمار القول، أي يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾.

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»، مادة: (نكس)، ص ١٠٤٨.

(٢) «القاموس المحيط»: ص ٥٢١، و«المصباح المنير للفيومي»: ص ٢١٣.

(٣) «معجم مفردات القرآن»، مادة: (نكس)، ص ٥٦١.

(٤) «عمدة الحفاظ»، مادة: (نكس)، جـ ٤، ص ٢٦٩٦.

ومفعولي: ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ محذوفان، والتقدير: أبصرنا قُبحَ أعمالنا، وكنا نراها في الدنيا حسنة، وسمعنا أن مردّنا إلى النار»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا .. إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ مشاكلة، وهي الإتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، فإن الله تعالى لا ينسى، وإنما المراد نترككم في العذاب ترك الشيء المنسي.

وقرأ زيد بن علي: ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴾ فعلًا ماضيًا ومفعولًا[٢]، وهو من النكس أيضًا، وهو قلب الشيء على رأسه كالتنكيس، وبابه نصر[٣].

ثانيًا - الشرح وبيان المعنى العام للآيات الكريمة :

لما أثبت الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمنكري البعث أنه لابد من موتهم، ولا مفر من رجوعهم إلى الله تعالى يوم القيامة، بيّن سبحانه ما يكون عند رجوعهم على سبيل الإجمال، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ والمعنى: ولو ترى أيها المخاطب حال هؤلاء المجرمين، وتشاهد خزيهم وذلتهم وهم مطأطئوا الرءوس خجلًا من الله تعالى وحياءً منه يوم القيامة لرأيت أمرًا عظيمًا فظيعًا، وجواب (لو) محذوف كما أشرنا آنفًا.

يقول الإمام أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجواب (لو) محذوف، أي: لرأيت أمرًا عظيمًا لا يقادر قدره، والخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائنًا من كان[٤]، وهناك من يرى أن الخطاب هنا موجه إلى رسول الله ﷺ».

---

(١) "تفسير أبي السعود": جـ ٤، ص ١٩٧.

(٢) "تفسير الآلوسي": جـ ٢١، ص ١٢٦.

(٣) "مختار الصحاح": جـ ٢، ص ٦٧٩.

(٤) «تفسير أبي السعود»: جـ ٤، ص ٨٣.

يقول الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿ تَرَىٰٓ ﴾ يحتمل أن يكون خطابًا للرسول ﷺ تشفيًا لصدره، فإنهم كانوا يؤذونه بالتكذيب، ويحتمل أن يكون عامًا مع كل أحد»[1].

ثم بين الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قول هؤلاء المجرمين وقتئذ، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

والمعنى: أنهم يقفون بين يدي رب العزة سبحانه ذليلين حقيرين، ويعودون على أنفسهم بالملامة إذا فوجئوا بدخولهم النار فيقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا، أي إننا رأينا ما وعدتنا، وما أنكرنا من البعث، وسمعنا منك تصديق الرسل الذين كنا ننكرهم، فهم قد أبصروا، ولكن لا ينفعهم البصر، وسمعوا حيث لا ينفعهم السمع.

ثم يبين الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ طلب هؤلاء المجرمين، فقال تعالى حكاية عنهم ﴿ فَٱرْجِعْنَا ﴾ أي: إلى الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ لأننا تحققنا وتيقنا أن وعدك حق، ولم يبق لنا اليوم شك بعد ما شاهدنا، فإننا اليوم والآن مصدقون تصديقًا جازمًا.

وبعد أن بين الله تعالى مقالة هؤلاء الكفار رد عليهم، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ وهذا الرد فيه تكذيب لهم وتوبيخ؛ لأنه تعالى قد علم أنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لمثل ما كانوا عليه، كما قال تعالى إخبارًا عنهم في موضع آخر: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

[الأنعام: ٢٧-٢٨]

(١) «تفسير مفاتيح الغيب»: جـ ٦، ص ٥٦٠.

فقولهم هذا لم يأت إلا بعد معاينة العذاب وهول الموقف يوم القيامة، ولو ردوا إلى الدنيا فإنهم يرجعون إلى الكفر والتكذيب بآيات الله تعالى، ومخالفة رسله عليهم الصلاة والسلام؛ لذلك كان الرد عليهم في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا ... ﴾، والمعنى: كيف يكون ويتأتى من هؤلاء الكفار إيمان؟ والله تعالى أراد لهم ما هم عليه من الكفر؛ لأنه تعالى علم أنهم مصرون على الكفر، وأن نفوسهم لا تقبل غيره.

والآية الكريمة تفيد أن حكمة الله تعالى تقتضي عدم هداية جميع الخلق؛ لأنه تعالى يريد منهم الإيمان بطريق الاختيار، لا بطريق الإجبار والإكراه؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾ أي: ثبت ووجب قولي بعذاب الكافرين، وتقرر وعيدي لهم، وهو: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: سبقت كلمتي لأملأن جهنم بالعصاة من الجن والإنس جميعًا، وهذا إشارة إلى قوله تعالى خطابًا لإبليس: ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

وهنا تعليق طيب للشيخ عبد الكريم الخطيب حول هذا الموضوع، يقول: «ويسأل سائل: لماذا إذن كانت دعوات الرسل؟ ولماذا إذن كان العمل؟ وكان الإيمان والكفر؟ لم هذا وقد سبق القضاء؟ ونزل كل إنسان منزلة من الجنة والنار منذ الأزل؟».

وفي كلمة موجزة نقول: «إن لله قضاء سابقًا في خلقه هذا حق، فللجنة أهلها، وللنار أهلها، ولن يتحول إنسان أبدًا عما أراد الله له، ولكن مع هذا، فإن هذا القضاء محجوب عن الناس، فلا يدري أحد أهو من هذا الفريق أم ذاك، وذلك ما قضت به حكمة الله، حتى يظل باب العمل مفتوحًا لكل عامل، فهناك طريقان طريق الإيمان والهدى، وطريق الكفر والضلال، والأول موصل إلى الجنة، والآخر منته إلى النار، والإنسان مخير في اختيار أحد الطريقين، هكذا يبدو الأمر في ظاهرة فلا قسر، ولا قهر، وإن كان لله الأمر

كله، فمن كان من أهل الجنة يسره الله لها، ومن كان من أهل النار أخلى الله طريقه إليها، وكل ميسر لما خلق له، ولا تسأل بعد هذا لما اختار الله هذا الفريق للجنة، واختار هذا للنار، إنه خلقهم لم يشاركه أحد في الخلق، وإنه أقامهم حيث أقامهم، فلا اعتراض على المالك في تصرفه فيما ملك، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [التغابن: ٢]»[1].

ثم أخبر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما يقال لأهل النار يوم القيامة بقوله: ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ والمعنى: أنه يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب، وذلك بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه وبسبب نسيانكم الدار الآخرة، وإنهما ككم في الشهوات، ﴿ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ أي: أهملناكم وتركناكم في العذاب ترك المنسي بالمرة، والمراد: أن جزاءهم يكون من جنس العمل لأنه تعالى لا ينسى شيئًا، ولا يضل عنه شيء، فهذا من باب المشاكلة والمقابلة، كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠].

ثم كرر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأمر للتأكيد والتقرير، فقال تعالى: ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: بسبب كفركم وتكذيبكم، وفي هذا إشعار بأن سبب ذوق العذاب ليس هو مجرد نسيانهم فقط، بل هناك أسباب أخرى من الكفر والمعاصي التي كانوا ملازمين لها ومستمرين عليها في الدنيا، وفي وصف العذاب بالخلد يشعر بدوام هذا العذاب في جهنم، وفي قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ ﴾ تهكم بهم وسخرية؛ لأن حقيقة الذوق إدراك المطعوم الذي يشتهي، إذن: فاللفظ على التهكم مبالغة في المعنى.

---

(١) «التفسير القرآني للقرآن»، جـ ٢١، ص ٦١٧.

ثالثًا - ما يُستفاد من الآيات الكريمة من الأحكام والعبر:

❁ بيان حالة الكفار من الخزي والذلة، والفظاعة يوم القيامة عند الحساب ورؤيتهم العذاب، واعترافهم بالحق الذي كانوا ينكرونه في الدنيا.

❁ تمني الكفار الرجوع إلى الدنيا عند معاينة العذاب كي يعملوا صالحًا حسب زعمهم، غير أنهم لم يجابوا لهذا الطلب لعلم الله تعالى أنهم يرجعون إلى الكفر.

❁ بيان أن الهداية للخلق من الله وحده، وأن حكمة الله تعالى اقتضت عدم هداية الخلق جميعًا، حتى يكون الإيمان صادرًا عن اختيار لا عن إكراه.

❁ أنه سبق في علم الله تعالى أن يملأ جهنم من الجن والإنس العصاة.

❁ الكفار مخلدون في عذاب النار يوم القيامة جزاء أعمالهم الخبيثة في الدنيا، وكفرهم بالله تعالى.

(٦) جزاء المصلين الصادقين

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

[السجدة: ١٥-١٧]

أولًا - المباحث الإعرابية والبلاغية:

خروا: الخر: السقوط من أعلى إلى أسفل، أي: سقطوا ساجدين تواضعًا لله تعالى وخشوعًا، وخوفًا من عذابه جَلَّوَعَلَا، و(خَرّ) لله ساجدًا يَخِرّ بالكسر (خُرُورًا) أي: سقط[١].

والسجود: معناه الخضوع الكامل لله تعالى (سجد) خضع، ومنه سجود الصلاة، وهو وضع الجبهة على الأرض[٢].

والتسبيح: التنزيه، و(سبحان الله) معناه: التنزيه لله[٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: نزهوه تعالى عند ذلك عن كل ما لا يليق به سبحانه من الأمور التي من جملتها العجز عن البعث، متلبسين بحمده تعالى على نعمائه جَلَّوَعَلَا التي أجلها الهداية بإيتاء الآيات والتوفيق إلى الاهتداء بها، فالحمد في مقابلة النعمة[٤].

تتجافى: تجافى جنبه عن الفراش أي نبا عن الفراش.

---

(١) "مختار الصحاح"، مادة: (خ ر ر)، ص ١٧٢.

(٢) "مختار الصحاح"، مادة: (س ج د)، ص ٢٨٦.

(٣) "مختار الصحاح"، مادة: (س ب ح)، ص ٢٨٢.

(٤) "تفسير الآلوسي": جـ ٢١، ص ١٣٠.

يقول ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجيم والفاء والحرف المعتل يدل علي أصل واحد، نبوّ الشيء عن الشيء، من ذلك: جفوت الرجُل أجفوه، وجفا السَرج عن ظهر الفرس»[١]، وبهذا المعنى قال الفيروز آبادي[٢]، وصاحب (المصباح المنير)[٣]، والراغب[٤] رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ».

وضجع الرجل: وضع جنبه بالأرض، وبه قطع، وخضع فهو ضاجع و(اضطجع) مثله[٥]، والمعنى: ترتفع جنوبهم وتنبو عن الفرش وهو كناية عن كثرة العبادة والتبتل.

وقرأ حمزة ويعقوب والأعمش (أخفى) بسكون الياء فعلًا مضارعًا للمتكلم[٦]، وابن مسعود (نخفي) بنون العظمة، والأعمش أيضًا (أخفيت) بالاستناد إلى ضمير المتكلم وحده، ومحمد بن كعب (أخفى) فعلًا ماضيًا مبينًا للفاعل، و(ما) في جميع ذلك اسم موصول مفعول (تعلم) والعلم بمعنى المعرفة، والعائد الضمير المستتر النائب عن الفاعل على قراءة الجمهور، وضميره محذوف على غيرها.

وقال أبو البقاء: «يجوز أن تكون (ما) استفهامية وموضعها رفع بالابتداء، و(أخفى لهم) خبره على قراءة من فتح الياء، وعلى قراءة من سكنها وجعل (أخفى) مضارعًا يكون (ما) في موضع نصب بأخفى، ويعلم منه حالها على سائر القراءات، وإذا كانت استفهامية يجوز أن يكون العلم بمعنى المعرفة، وأن يكون على ظاهره فيتعدى لمفعولين تسد الجملة الاستفهامية مسدهما، وعلى كل من احتمالي الموصولية والاستفهامية فالإبهام للتعظيم».

(١) «معجم مقاييس اللغة»، مادة: (جفو)، ص ٢١٩.

(٢) «القاموس المحيط»: ص ١١٤٤.

(٣) «المصباح المنير» للفيومي: ص ٥٨.

(٤) «معجم مفردات القرآن»، مادة: (جفا)، ص ١٠٧.

(٥) «مختار الصحاح»، مادة: (ض ج ع)، ص ٣٧٧.

(٦) «النشر في القراءات العشر لابن الجزري»: جـ ٢، ص ٣٤٧.

وقرأ عبد الله، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وغيرهم (من قُرات أعين) على الجمع بالألف والتاء وهي رواية عن أبي عمرو، وأبي جعفر، والأعمش، وجمع المصدر أو اسمه لاختلاف أنواع القرة، والجار والمجرور في موضع الحال[١].

أسباب النزول:

أخرج الإمام الترمذي وصححه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعي العتمة[٢].

وأخرج الإمام البزار عن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا نجلس في المسجد وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾»[٣].

ثانيًا - الشرح وبيان المعنى العام للآيات الكريمة:

لما بين الله تعالى في الآيات السابقة حال الأشقياء، وذكر ما يكونون عليه من العاقبة الوخيمة، والعذاب الأليم، أتبع ذلك ببيان حال السعداء، وما أعده لهم من النعيم الدائم المقيم في دار الجزاء، وذلك ليكون العبد دائمًا بين الرهبة والرغبة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا

---

(١) "تفسير الآلوسي": جـ ٢١، ص ١٣٠، وينظر: «مختصر شواذ القرآن»: ص ١١٨.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في «سننه»، في «كتاب التفسير»، برقم [٣١٩٦]، وقال عنه: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ينظر «الجامع الصحيح»: جـ ٥، ص ٣٤٦، برقم [٣١٩٦]، وقال الحافظ ابن كثير: رواه ابن جرير، جـ ٣، ص ٧٣١ بإسنادٍ جيد.

(٣) ينظر: «أسباب النزول للسيوطي»: ص ٢١٥، وضعفه، و«أسباب النزول للواحدي»: ص ٢٢٦، ورواه الإمام البزار في «مسنده» برقم [٢٢٥٠]، وقال الإمام الهيثمي في «الزوائد»: جـ ٧، ص ٩٠، رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف، وشيخ البزار قال عنه الإمام الذهبي في «الميزان»: جـ ٢، ص ٤٣٨، إخباري علامة لكنه رواه، وترك حديثه ابن خزيمة، وقال عنه الحاكم: ذاهب الحديث، ينظر: «اللسان»: جـ ٣، ص ٢٩٩، وحكم عليه أ.د/ أبوعمر نادي بن محمود بن حسن الأزهرى بالضعف، ينظر: «الدخيل من أسباب التنزيل»: ص ٢٥٩.

﴿ يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا ﴾أي: إنما يصدق بآياتنا المؤمنون المتقون الذين إذا وعظوا بها استمعوا لها وأطاعوها قولًا وفعلًا، ثم بعد ذلك خروا ساجدين لله بأعضائهم، ونزلوا على وجوههم تعظيمًا لآياته.

وقوله: ﴿ وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: نزهوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما لا يليق به، وسبحوه على نعمائه متلبسين بحمده تعالى على تلك النعم التي من أجلها نعمة الهداية.

وقوله: ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي: عن الإيمان والطاعة، كما يفعل من يُصر مستكبرًا كأن لم يسمع الآيات ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غَافِر: ٦٠].

وكقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لُقْمَان: ٧].

هذه هي المرتبة العالية لأهل الإيمان الذين يسمعون كلام الله تعالى فيستجيبون له ويخضعون له عملًا واعتقادًا، ومن أجل ذلك: استحقوا مدح الله تعالى لهم، ورضاه عنهم.

وبعد أن مدح الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أهل هذه الدرجة الرفيعة، أتبع ذلك بذكر استجابتهم لأمر الله، وتركهم النوم بالليل وانقطاعهم للعبادة، فقال جل ثناؤه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ أي: تتنحى وترتفع جنوبهم عن مواضع النوم؛ لأن ﴿ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ أماكن الاتكاء للنوم وهذا كناية عن تركهم للنوم، بمعنى: أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم للعبادة، كما قال تعالى: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذَّارِيَات: ١٧-١٨]، والمراد بذلك: قيام الليل كما ذكر العلماء.

يقول الإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المشهور أن المراد بذلك التجافي القيام لصلاة النوافل بالليل، وهو قول الحسن ومجاهد، ومالك والأوزاعي، وغيرهم، وفي الأخبار الصحيحة ما يشهد له»[(١)(٢)].

ويقول الشيخ محمد محمود حجازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القيام بالليل والتهجد فيه لون من العبادة عال، وتوفيق من الله كبير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد ورد فيه مع هذه الآيات آيات وأحاديث كثيرة، كلها تهدف إلى بيان فضله وجزيل مثوبته»[(٣)].

ثم يبين الله تعالى حال هؤلاء المتقين المتهجدين، فقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: إنهم يدعون ربهم خوفًا من عذابه، وطمعًا في رحمته، وجزيل ثوابه.

فهم يهرعون إلى الصلاة ليلًا، ويدعون ربهم، وينفقون أموالهم، كل ذلك كان خوفًا من عقاب الله تعالى، وطمعًا في ثوابه وفضله.

ثم يختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله عز من قائل: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: وكذلك ينفقون مما أعطيناهم من الرزق في وجوه البر والإحسان.

هذا وبعد أن بين الله تعالى أعمال هؤلاء المؤمنين الصادقين من قيامهم للصلاة بالليل، ودعائهم ربهم خوفًا وطمعًا، وإنفاقهم في سبيل الله تعالى.

بَيّنَ ما يكون لهم من الخير جزاء أعمالهم، فقال جل ثناؤه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أن هؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بهذه الأوصاف الجميلة لا يعلم أحد من الخلق، لا مَلَكٌ مُقرَّب ولا نَبيٌّ مُرسل فضلًا عمن

---

(١) ينظر: «سنن الإمام الترمذي»، «كتاب الإيمان»، باب: (ما جاء في حرمة الصلاة)، جـ ١٠، ص ٨٧، وما بعدها.

(٢) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣١.

(٣) «التفسير الواضح»: جـ ٢١، ص ٦٣.

عداهم مقدار ما يعطيهم الله تعالى من النعيم الدائم العظيم، وذلك مما تقر العين به، ولا تلتفت إلى غيره.

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللّذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفوا أعمالهم، كذلك أخفى الله لهم من الثواب جزاءً وفاقًا، فإن الجزاء من جنس العمل»[(١)].

وأخرج البخاري ومسلم في (صحيحيهما)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بله،[(٢)] ما أطلعتكم عليه، أقرءوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾**»[(٣)].

والآية الكريمة تبيّن وتوضح سعة فضل الله تعالى وعطاءه الجزيل للمؤمنين الصادقين المتقين الذين يُسِّرون العبادة، ويخفون الطاعة لا يبتغون بذلك إلا فضل الله تعالى ورضاءه، فهم يقومون في الأسحار والناس نيام بعيدين عن الرياء والنفاق، فلا غرابة في أن يكرمهم الله تعالى غاية الإكرام، ويخفي لهم ما تَقَرّ به أعينهم يوم القيامة، فالجزاء من جنس العمل، نسأل الله تعالى التوفيق لما يحبه ويرضاه.

الأحكام الفقهية المتعلقة بسجود التلاوة:

لما كانت سورة ﴿ السَّجْدَة ﴾ من السور المشتملة على (سجدة تلاوة)، وخصوصًا لما ثبت أن النبي ﷺ كان يداوم على قراءة سورة السجدة في الركعة الأولى من صلاة الصبح

---

(١) «تفسير ابن كثير»: جـ ٣، ص ٤٦٠.

(٢) بله: اسم فعل أمر بمعنى: دع، أو اترك.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» بهامش «فتح الباري»: جـ ٨، ص ٥١٥، في كتاب «التفسير»، باب: ﴿ السَّجْدَة ﴾،... وأخرجه الإمام مسلم في «صحيحه»: جـ ٣، ص ٥٣٠، «كتاب الجنة وصفة نعيمها».

يوم الجمعة، وكذلك ما ثبت أنه ﷺ كان لا ينام حتى يقرأها، ورغب في قراءتها كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على فضلها؛ لذلك رأيت بعون الله تعالى أن أتعرض لسجدة التلاوة من حيث حكمها ودليلها، والمواضع التي بها سجدة تلاوة، كما أتعرض للشروط، التي اشترطها العلماء لهذه السجدة، وكذلك ما ورد في التكبير لها والتشهد، والسلام منها، وكذا ما كان يقوله ﷺ في سجوده إلى غير ذلك مما يتعلق بها بالنسبة للأوقات التي تصح عندها، وكذا الأوقات التي تكره، أو تحرم عندها، فأقول وبالله أستعين:

حكمها: سُنَّة في حق القارئ، وقاصد الاستماع على القول المشهور، وقيل: فضيلة.

دليلها: أخرج الإمام مسلم بسنده عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد بعضنا موضعًا لمكان جبهته [(١)].

مواضعها: المشهور عند العلماء أنها (إحدى عشرة سجدة)، وهي كالتالي في سورة: ﴿ الْأَعْرَافِ ﴾، و﴿ الرَّعْدِ ﴾، و﴿ النَّحْلِ ﴾، و﴿ الْإِسْرَاءِ ﴾، و﴿ مَرْيَمَ ﴾، و﴿ الْحَجِّ ﴾، و﴿ الْفُرْقَانِ ﴾، و﴿ النَّمْلِ ﴾، و﴿ السَّجْدَةِ ﴾، و﴿ صَ ﴾، و﴿ فُصِّلَتْ ﴾، على أساس أنه ليس في المفصل شيء منها، أي لا سجود في: ﴿ النَّجْمِ ﴾، و﴿ الِانْشِقَاقِ ﴾، و﴿ الْقَلَمِ ﴾.

يحكي الشيخ أبو الحسن المالكي هذه الأقوال فيذكر: «والمشهور أن سجدات القرآن أَحَدَ عَشَرَ)، وهي: العزايم، أي الأوامر، ليس في المفصل...(وأوله الحجرات على ما اختاره بعضهم) منها شيء على أنه لا سجود في التي في النجم، والانشقاق، والقلم وهو المشهور»[(٢)].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه»، في كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»، باب: (سجود التلاوة)، جـ ١، ص ١٣٣.

(٢) ينظر: «كفاية الطالب» الرباني: جـ ١، ص ٣٠٩.

والإمام الدردير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير أيضًا إلى أن مواضع سجود القرآن إحدى عشر موضعًا تاركًا سجدات المفصل كغيره من فقهاء المالكية، وتاركًا أيضًا (ثانية سورة الحج) فيذكر ما نصه: (سجود التلاوة في أحد عشر موضعًا من القرآن، لا في ثانية الحج، ولا النجم ولا الإنشقاق ولا القلم، تقديمًا للعمل على الحديث لدلالته على نسخه..»[(١)].

ويعلق الشيخ الصاوي في الحاشية على كلام الشيخ الدردير في هذا الشأن فيذكر: «أي عمل أهل المدينة من ترك السجود في هذه المواضع الأربعة، وقوله على الحديث، أي الدال على طلب السجود فيها»[(٢)].

والصحيح هو السجود في هذه المواضع، فقد ذكرها الإمام مسلم في (صحيحه)، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة، في سورة النجم، والإنشقاق، والقلم.

والإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر أن الأحاديث المروية في عدم السجود في تلك المواضع إسنادها واه، أو هي أحاديث ضعيفة فيذكر ما نصه: «وصح عنه ﷺ أنه سجد في (آلم تنزيل)، وفي سورة (ص)، وفي (النجم)، وفي (إذا السماء انشقت)، وفي (إقرأ باسم ربك الذي خلق)... ثم يستطرد ابن القيم فيقول: وقد صح عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سجد مع النبي ﷺ في (إقرأ باسم ربك الذي خلق)، وفي (إذا السماء انشقت)، وهو إنما أسلم بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بست سنين، أو سبع، فلو تعارض الحديثان من كل وجه، وتقاوما في الصحة لتعيين تقديم حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لأنه مثبت معه زيادة علم خفت على ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فكيف وحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في غاية الصحة، والله أعلم»[(٣)].

---

(١) ينظر: «الشرح الصغير»: جـ ١، ص ١٧٠.

(٢) ينظر: «حاشية الصاوي»: جـ١، ص ١٧٠.

(٣) ينظر: «زاد المعاد في هدى خير العباد»: جـ ١، ص ٩٦.

والذي تطمئن له النفس، أنه لا مانع من السجود في تلك المواضع، مادامت هناك أحاديث صحيحة مروية في هذا الشأن تفيد سجود النبي ﷺ في هذه المواضع.

شروطها: أما بالنسبة لشروط صحة سجدة التلاوة فقد اشترط العلماء لها شروط الصلاة من طهارة الحدث والخبث، واستقبال القبلة، وستر العورة، فإذا توفرت هذه الشروط سجد القارئ وقاصد الاستماع، إن لم يكن وقت كراهة أو حرمة، كما سيأتي بيانه.

- أما بالنسبة للتكبير في سجدة التلاوة: فقد أشار العلماء إلى أن المصلي يكبر في الخفض والرفع إذا ما مر بآية فيها سجدة، وذلك باتفاقهم، وكذلك يكبر إن كان في غير صلاة على القول المشهور، وقيل: يكره له التكبير إن كان في غير صلاة، كما أن هناك قولًا يفيد بأن المأمور بالسجود إن كان في غير صلاة فهو مخير بين التكبير وعدمه، ولا يلزم لها رفع اليدين، ولا التشهد، ولا السلام.

والإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أن الصواب عدم التكبير في الرفع من هذه السجدة، وكذا في ترك التشهد والسلام، ويشير إلى أنه لم ينقل عن رسول الله ﷺ تكبير في الرفع، ولا التشهد ولا سلام[1].

ومن دعاء النبي ﷺ في سجدة التلاوة ما ثبت عنه أنه كان إذا أمر بسجدة كبر وسجد، وربما قال في سجوده: «**سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته**»، وربما قال: «**اللَّهُمَّ احطط عني بها وزرًا، واكتب لي بها أجرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ»[2].

---

(١) «زاد المعاد في هدى خير العباد»: جـ ١، ص ٩٦.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في «سننه»، في كتاب «الصلاة»، أبواب متفرقة في الصلاة، باب: (ما جاء فيما يقوله في سجود القرآن)، جـ ١، برقم [٥٧٦-٥٧٧]، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح»، وأبو داود في «سننه»، في كتاب «الصلاة»، باب: (ما يقول إذا سجد)، جـ١، برقم [١٤٠١-١٤٠٢]، وينظر: «زاد المعاد في هدى خير العباد»، لابن القيم، فصل في (هدي النبي في سجود القرآن): جـ ١، ص ٩٧.

ويحرم فعلها في بعض الأوقات، ويكره أيضًا في البعض الآخر كما في الصلاة، فيحرم فعلها عند طلوع الشمس، وعند غروبها، وعند خطبة الجمعة، وعند الإسفار، والاصفرار، أما وقوعها بعد صلاة الصبح وقبل الإسفار، وبعد صلاة العصر، وقبل الاصفرار، وهما محلا الكراهة بالنسبة للنوافل فقد اختلف فيه، وقد رجح العلماء فعلها في هذين الوقتين؛ لأنها سنة مؤكدة تخالف بقية النوافل. والله أعلم.

ثالثًا - ما يُستفاد من الآيات الكريمة من الأحكام والعبر:

❁ المؤمن الصادق إذا سمع القرآن الكريم خر ساجدًا لله تعالى، ونزه الله تعالى عما لا يليق به غير مستكبر ولا متعال.

❁ أن قيام الليل مطلوب مرغب فيه، وأن فضله عظيم، وثوابه جزيل، وقد وردت بذلك الأخبار الصحيحة.

❁ أن الله تعالى إدخر لعباده الصالحين في الآخرة فضلًا عظيمًا لا يقادر قدره مما لم تره عين، ولم تسمعه أذن، ولم يخطر على قلب بشر، وذلك جزاء إخفائهم العبادة، وإسرارهم الطاعة لله تعالى.

❁ أن لسجود التلاوة فضل عظيم، وثوابٌ كبير عند الله تعالى.

(٧) جزاء المصدقين وعقاب المكذبين

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ١٨-٢٢].

أولًا - المباحث الإعرابية والبلاغية:

الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله، وفسق عن أمر ربه أي خرج[١]، وأصل الفسق: الخروج من فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها، ثم استعمل في الخروج عن الطاعة وأحكام الشرع مطلقًا، فهو أعم من الكفر[٢].

﴿ نُزُلًۢا ﴾: عطاء وضيافة، والنزل: ما يهيأ للنازل، والجمع (الإنزال)[٣].

﴿ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾: أي القريب، وهو ما يكون في الدنيا من القحط. والجوع والبلاء.

يقول ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدال والنون والحرف المعتل أصل واحد يقاس بعضه علي بعض، وهو: المقاربة، والقرب»[٤].

---

(١) «مختار الصحاح»، مادة: (ف س ق)، ص ٥٠٣.

(٢) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣٣.

(٣) «مختار الصحاح»، مادة: (ن ز ل)، ص ٦٥٥.

(٤) «معجم مقاييس اللغة»، مادة: (دني)، ص ٣٦٦.

وبهذا المعنى قال الفيروز آبادي[١]، وصاحب (المصباح المنير)[٢]، والراغب[٣] رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

في قوله تعالى: ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ مقابلة لطيفة بين جزاء الأبرار وجزاء الفجار، وهو من المحسنات البديعية.

وقرأ طلحة: (جنة المأوى) بالإفراد، وقرأ أبو حيوة (نزْلا) بإسكان الزال[٤].

ثانيًا - الشرح وبيان المعنى العام للآيات الكريمة:

يخبر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الفارق الكبير، والبون الشاسع بين المؤمن الصالح وبين الفاسق الكافر، فيقول جل شأنه: (أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يستوون):

أسباب النزول:

ذكر المفسرون أن الآية الكريمة نزلت في سيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والوليد ابن عقبة بن أبي معيط، قال لسيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث دار بينهما، أنا أحد منك سنانًا، وأبسط. منك لسانًا، وأملأ للكتيبة منك. فقال له سيدنا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أسكت فإنما أنت فاسق»، فنزل قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾[٥].

---

(١) «القاموس المحيط»: ص ١١٥٦.

(٢) «المصباح المنير» للفيومي، مادة: (دنا)، ص ١٠٦.

(٣) «معجم مفردات القرآن»، مادة: (دنا)، ص ١٩٣.

(٤) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣٣، و«مختصر في شواذ القرآن»: ص ١١٨

(٥) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص ٢٢٧، و«أسباب النزول» للشيخ القاضي: ص ١٧٥، والسيوطي في «الدر المنثور»: جـ ٥، ص ٣٤١، و«الأغاني» للأصفهاني: جـ ٥، ص ١٥٣، «وتاريخ دمشق» لابن عساكر: جـ ١٧، ص ٨٧٦، وأشار أ.د/ أبو عمر نادي بن محمود حسن الأزهري لهذه الرواية بالضعف، وقال: «ثبت في رواية أخرى ان المعني بالفاسق في الآية الكريمة هو (عقبة بن أبي معيط) وليس الوليد بن

والمعنى: أفمن كان في الحياة الدنيا مؤمنًا طائعًا تقيًا يؤمن بالله تعالى ورسله، كمن كان فاسقًا خارجًا عن طاعة الله، مكذبًا برسله؟

لا يستوون عند الله في الآخرة في الثواب والكرامة، كما أنهم لا يستوون في الدنيا بالنسبة للطاعة والعبادة، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تشبه هذه الآية الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقوله جل شأنه: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠]

وربما يسأل سائل: كيف جاءت الآية الكريمة بالإفراد أولًا في قوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾، ثم جاء تذييلها بضمير الجمع في قوله: ﴿ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾.

عقبة»، ثم قال: «وهو ما ينبغي أن يعول عليه في سبب النزول؛ لأنها تتفق مع سياق الآية الكريمة، وتأويل المفسرين لها، حيث فسر ابن جرير الطبري (الفاسق في الآية بالكافر) وهو لا يستقيم مع إيمان الوليد بن عقبة وتصديقه وجهاده في سبيل الله، فالرواية التي فيها (الوليد) فيها وهمٌ وخطأ، والصحيح هو (عقبة) والد الوليد (لأنه مات كافرًا)، والله أعلم. يُنظر: «الدخيل من أسباب التنزيل»، ص ٢٦٠ - ٢٦١، وهو رأي الإمام القرطبي، والصاوي، وابن كثير أن الآية نزلت في علي بن أبي طالب، وعقبة بن أبي معيط؛ حيث كان بينهما تنازع وخصومة.

والإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يجيب على هذا السؤال فيذكر:** «والجمع باعتبار معنى (من)، كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها، وقيل: الضمير لاثنين وهما المؤمن والكافر، والتثنية جمع»[(١)].

وربما يتوهم متوهم أن الفسق أخف من الكفر، والحقيقة أن الفسق أعم من الكفر، كما أن الكافر قد يوصف بالفسق في بعض الحالات.

يقول الإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصل الفسق: الخروج، من فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها، ثم استعمل في الخروج عن الطاعة، وأحكام الشرع مطلقًا فهو أعم من الكفر، وقد يخص به كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وكان هنا لمقابلته بالمؤمن»[(٢)].

ثم فَصَّل الله تعالى حكم الفريقين وجزاءهم فقال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي المؤمنين الذين صدقّوا بقلوبهم بالله وآياته، ثم عملوا بمقتضى هذا الإيمان الأعمال الصالحة ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، أي: لهم الجنات التي فيها المساكن والدور والغرف العالية، وأضيفت الجنان للمأوى؛ لأنها هي المسكن الحقيقي الدائم بالنسبة لمساكن الدنيا، فإن مساكن ومنازل الدنيا زائلة لا بقاء لها.

يقول الإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقيل: المأوى: علم لمكان مخصوص من الجنان كعدن، وقيل: جنة المأوى لما روي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنها تأوي إليها أرواح الشهداء، وروي أنها عن يمين العرش، ثم يستبعد الآلوسي أن تكون علمًا فيذكر: ولا يخفى ما في جعله علمًا من البعد»[(٣)].

---

(١) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣٣.

(٢) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣٣.

(٣) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣٣.

وقوله: ﴿ نُزُلًا ﴾ أي: ضيافة مهيأة ومعدة لإكرامهم ثوابًا من الله تعالى، والمراد بالنزل: ما يعد للضيف من الطعام والشراب والإكرام وما يعم كل عطاء.

ثم يبين الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن هؤلاء المؤمنين استحقوا هذا الجزاء الطيب بسبب أعمالهم الصالحة، فقال تعالى: ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي: بسبب ما كانوا يعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة، على أننا لا ننسى أن هذا العمل مصحوبٌ بفضل الله تعالى ووعده الحق، فلا منافاة بين ذلك، وبين الحديث الشريف الذي أخرجه الإمامان البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله ﷺ؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة**»(١).

ثم بين الله تعالى جزاء الكافرين الفاسقين، فقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ أي وأما الذين فسقوا وخرجوا عن الطاعة، فالنار هي مأواهم يلجأون إليها، وذلك في مقابلة ﴿ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ للمؤمنين الصالحين، مع الفارق العظيم بين الجزاءين كما أشرنا آنفًا.

ثم يخبر الله تعالى عن حال هؤلاء الكفار عند دخولهم النار، فيقول تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ أي: كلما دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردوا إلى موضعهم فيها.

يقول الإمام الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعنى: كلما شارفوا الخروج منها وقربوا منه أعيدوا فيها، ودفعوا إلى قعرها، فقد روي أنهم يضربهم لهب النار فيرتفعون إلى

(١) أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» بهامش «فتح الباري»، جـ٨، ص ١٢٢، في كتاب «الرقاق»، باب: [١٨]، وأخرجه الإمام مسلم في «صحيحه»: جـ ٢، ص ٥٢٨، في كتاب «صفة القيامة والجنة والنار»، باب: (لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى).

أعلاها، حتى إذا قربوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم الله ب فيهوون إلى قعرها، وهكذا يُفعَلُ بهم أبدًا... ثم يذكر الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجوز أن يكون الكلام هنا عبارة عن خلودهم فيها، وأيًا ما كان لا منافاة بين هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٧]»[1]

ثم يخبر الله تعالى عمّا يُقَالُ لهم حالة مكثهم في النار، فيقول عز من قائل: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تقول لهم خزنة النار توبيخًا لهم وتقريعًا وإهانة لهم، وزيادة في كيدهم وغيظهم ذوقوا عذاب النار المخزي المحرق الذي كنتم به تكذبون في الدنيا، وتهزأون منه، هذا وقد جاء ذكر النار ظاهرًا في آخر الآية مع أنه تقدم ذكرها في أولها لزيادة التهديد والتخويف وتعظيم الأمر.

ثم يبين الحق جَلَّ وَعَلَا أنه لم يترك الكفار في الدنيا دون عذاب حتى يعذبهم يوم القيامة، ولكنه لابد وأن يذيقهم عذابًا قريبًا في الدنيا.

فيقول سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ فالواو للقسم، واللام للتأكيد، والضمير المتصل للكافرين المكذبين الجاحدين، أي: ولنذيقنهم بعض العذاب الأقرب والأهون من مصائب الدنيا وآفاتها، من أمراض وأسقام، ومعنى: (دون) أي (قبل).

وقد اختلف المفسرون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في المراد من العذاب الأدنى، ويلخص ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوال العلماء فيقول: فيه ستة أقوال:

أحدها - أنه ما أصابهم يوم بدر، رواه مسروق عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وبه قال قتادة والسدي.

---

(١) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣٣.

والثاني - سنون أُخِذُوا بها، رواه أبو عبيدة عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وبه قال النخعي، وقال مقاتل: أُخِذُوا بالجوع سبع سنين.

والثالث - مصائب الدنيا، قاله أُبي بن كعب وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في رواية ابن أبي طلحة، وأبو العالية والحسن وقتادة والضحاك.

والرابع - الحدود، رواه عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

والخامس - عذاب القبر، قاله البراء.

والسادس - القتل والجوع، قاله مجاهد[١].

وبهذه الأقوال الستة قال الآلوسي[٢]، وأكثر المفسرين رَحِمَهُمُ اللَّهُ[٣].

ثم قال تعالى: ﴿ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ أي قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب يوم القيامة الذي ينتظرهم، وذلك لأن عذاب الدنيا لا قيمة له بالنسبة إلى عذاب الآخرة، ولأن المعذب في الدنيا يهلك فيموت، ويستريح منه فلا يمتد.

وفي ذكر (الأدنى) في مقابلة (الأبعد)، وذكر (الأكبر) في مقابلة (الأصغر) حكمة يحدثنا عنها الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول: «وإنما لم يقل الأصغر في مقابلة الأكبر، أو الأبعد في مقابلة الأدنى؛ لأن المقصود هو التخويف والتهديد، وذلك إنما يحصل بالقرب لا الصغر، وبالكبر لا بالبعد»[٤].

---

(١) «تفسير زاد المسير»: جـ٦، ص ١٨٣.

(٢) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣٤.

(٣) ينظر ما يلي: «تفسير أبي السعود»: جـ ٤، ص ٣٠٣، «البحر المحيط»: جـ٨، ص ٤٣٨، «القرطبي»: جـ٦، ص ٥١٨٩، «المحرر الوجيز»: جـ٤، ص ٣٦٣، «الوسيط»: جـ٣، ص ٤٥٤، «الكشاف»: جـ٣، ص ٤٩٨، «مفاتيح الغيب»: جـ ١٢، ص ٢١٧، «القاسمي»: جـ ١٢، ص ٢١٧، «ابن كثير»: ج ٣، ص ٤٣٤.

(٤) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣٥.

والملاحظ هنا أن العلماء اختلفوا في (العذاب الأدنى) ما هو؟

والذي أراه أنه كل ما أصابهم في الدنيا أيًا كان، حتى نجمع بذلك بين آراء العلماء.

أما (العذاب الأكبر)، فقد اختلفوا فيه أيضًا، أهو في الدنيا؟ أم هو في الآخرة؟ وهو ما رجحه أكثر العلماء، ويستأنس لذلك بما أخرجه الإمام مسلم في (صحيحه) بسنده عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قال: مصائب الدنيا، والرُّومُ، والبطشة، أو الدخان»[1].

ويكون قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على رأي الجمهور متعلقًا بقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: لعلهم يرجعون قبل حلول العذاب الأكبر بهم يوم القيامة، إن هم ظَلُّوا على كفرهم.

أو يكون قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على رأي بعض العلماء الذين يرون أن العذابين في الدنيا، يكون متعلقًا بالعذابين الأدنى والأكبر معًا، فيكون المعنى: ولنذيقنهم من العذاب الأدنى والأكبر في الدنيا، لعلهم يرجعون عن غيهم قبل حلول أجلهم، ففيها زجرٌ وتهديدٌ وتخويفٌ لهم.

---

(١) رواه الإمام مسلم في «صحيحه» بهامش «شرح النووي»، في كتاب «صفة القيامة والجنة والنار»، باب: (الدخان) رقم: ٧، جـ ١٧، ص ١٢٥، برقم ٢٧٩٩، ط. مكتبة أبو بكر الصديق (البطشة أو الدخان) شكٌ من شعبة زاوي الحديث «، ومصائب الدنيا من الأسقام والأمراض وغيرها من الجوع والقحط والفقر، والدخان: الذي يأخذ بأنفاس الناس يوم القيامة، كما قال تعالى: (فارتقب يوم تأتي السماء بدخانٍ مبين)، واللزام والبطشة، ما جاء في قوله: (فسوف يكون لِزامًا): وهو ما جرى لهم يوم بدر من القتل والأسر، أما الروم، فهم أهل الروم الكفرة يحاربون الإسلام والمسلمين في آخر الزمان، وهي علامة من علامات الساعة.

وبعد أن توعد الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكافرين وهددهم، ينعي عليهم عدم استجابتهم لآياته تعالى، ويصفهم بالظلم الكثير، فيقول جل شأنه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن ذكره الله تعالى بآياته ووضحها له، ثم هو بعد ذلك يترك هذه الآيات ويجحدها ويعرض عنها، ويتناساها كأنه لا يعرفها، ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي: سأنتقم منهم انتقامًا شديدًا.

يقول الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمراد: أن ذلك أظلم من كل ظالم، ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قيل: أي من كل من اتصف بالإجرام، وكسب الأمور المذمومة، وإن لم يكن بهذه المثابة، ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف ممن هو أظلم من كل ظالم؟ وأشد جرمًا من كل جارم؟ ففي الجملة إثبات الانتقام منه بطريق برهاني»[1].

ثالثًا - ما يُستفاد من الآيات الكريمة من الأحكام والعبر:

- المؤمن الصالح لا يستوي مع الفاسق الكافر، وذلك عدل الله تعالى وفضله.
- المؤمنون الصالحون جزاؤهم جنات النعيم هي مسكنهم، ونعيمهم فيها دائم لا ينقطع أبدًا، جزاء أعمالهم الصالحة، وذلك كله بفضل الله ورحمته.
- أن الفاسقين الكافرين لهم عذاب الجحيم المقيم خالدين فيها أبدا، وذلك بسبب عصيانهم لله تعالى، وتكذيبهم لآياته ورسله.
- أن الله تعالى يعذب الخارجين عن طاعته في الدنيا ببعض العذاب من مصائب الدنيا وأسقامها بجانب العذاب الأكبر يوم القيامة.
- أنه ليس هناك أظلم من الذي يسمع آيات الله تعالى ثم هو يعرض عنها، ويكفر بها ويجحدها.

---

(١) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣٦.

(٨) سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهداية بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة: ٢٣-٢٥].

أولًا - المباحث الإعرابية والبلاغية:

مرية: شك أو ريب.

يقول ابن فارس: «الميم والراء والحرف المعتل أصلان صحيحان، يدل أحد هما: على مسح شيء واستدرار، والآخر: علي صلابةٍ في شيء، ومما شذ عنهما: المِرية: الشك[١].

ويقول الفيروز آبادي: «المِرْيَة: بالكسر، والضم: الشك والجدل، وتمارى: شك»[٢].

وبهذا المعنى قال صاحب (المصباح المنير)[٣]، والراغب[٤]، والسمين الحلبي[٥] رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

أئمة: جمع إمام، أي في الدين.

وقرأ الحسن: (مُرية) بضم الميم[٦]، وقرأ حمزة والكسائي ورويس (لَمَّا صبروا) بكسر اللام وتخفيف الميم على أن اللام للتعليل، و(ما) مصدرية، أي: لصبرهم على الطاعة، أو

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»، مادة: (مري)، ص ٩٨١.

(٢) «القاموس المحيط»، مادة: (مرأ)، ص ١٢٠٠.

(٣) «المصباح المنير» للفيومي، مادة: (مرأ)، ص ٢٩٤.

(٤) «معجم مفردات القرآن»، مادة: (مري)، ص ٥٢١.

(٥) «عمدة الحفاظ»، مادة: (مري)، جـ ٤، ص ٢٤٨٠.

(٦) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣٧.

عن الدنيا[١]، وقرأ عبد الله: (بما) بالباء السببية، و(ما) المصدرية، أي بسبب صبرهم[٢].

ثانيًا - الشرح وبيان المعنى العام للآيات الكريمة:

يخبر الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن نبيه ورسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أعطاه الكتاب وهو التوراة، وهذا رجوع إلى أحد الأصول الثلاثة التي ذكرتها السورة الكريمة في أول الأمر، وهي الرسالة، والتوحيد، وإثبات البعث.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ذكر المفسرون رَحِمَهُمُ اللَّهُ أقوالًا في المراد من الكتاب، والأكثرون على أن المراد بذلك (التوراة) التي أنزلها الله تعالى على سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة»[٣].

وقوله: ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ يلخص ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ اختلاف المفسرين في تفسيرها، وعود الضمير في قوله: ﴿ لِّقَآئِهِۦ ﴾ فيقول: فيها أربعة أقوال:

أحدها - فلا تكن في مرية من لقاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه عَزَّوَجَلَّ.

(رواه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ)

والثاني - من لقاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليلة الإسراء، قاله أبو العالية ومجاهد وقتادة وابن السائب.

---

(١) «تفسير الآلوسي»: ج ٢١، ص ١٣٦، «والبيضاوي»: ص ٥٥٢، «والنشر في القراءات العشر»: جـ ٢، ص ٣٤٧، «وشرح طيبة النشر»: ص ٣٧٤.

(٢) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣٨.

(٣) «تفسير ابن كثير»: جـ ٣، ص ٤٣٦.

والثالث - فلا تكن في شك من لقاء الأذى، كما لقي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قاله الحسن.

والرابع - لا تكن في مرية من تلقي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كتاب الله بالرضى والقبول. (قاله السدى)

قال الزجاج: «وقد قيل: فلا تكن في شك من لقاء الكتاب، فتكون الهاء للكتاب».

وقال أبو علي الفارسي: «المعنى من لقاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الكتاب، فأضيف المصدر إلى ضمير الكتاب، وفي ذلك مدح له على امتثال ما أُمِر به، وتنبيه علي الأخذ بمثل هذا الفعل»[(١)].

وبهذه الأقوال الأربعة قال: الإمام القرطبي[(٢)]، وأبو حيان، والآلوسي[(٣)]، وأكثر المفسرين رَحِمَهُمُ اللَّهُ[(٤)].

وباستعراض أقوال العلماء في مرجع الضمير المتصل في قوله: ﴿مِن لِّقَآئِهِۦ﴾ نجد أنه يدور حول: فلا تكن في شك من لقاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليلة الإسراء، أو يوم القيامة، فالضمير يعود على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أو من لقاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه عَزَّوَجَلَّ، فيكون الضمير عائدًا علي الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد يكون لقاء سيدنا محمد ﷺ، ربه عَزَّوَجَلَّ، أو من لقاء الأذى، كما لقي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيكون الضمير راجعًا إلى الأذى.

أو تلقي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بالرضى والقبول، فيكون الضمير راجعًا إلى كتاب الله وهو التوراة.

---

(١) «تفسير زاد المسير»: جـ٦، ص ١٨٤.

(٢) «القرطبي»: جـ٦، ص ٥١٩٠ - ٥١٩١.

(٣) «البحر المحيط»: جـ٨، ص ٤٤١، «والآلوسي»: جـ١٢، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٤) ينظر ما يلي: «تفسير أبي السعود»: جـ ٤، ص ٣٠٣، «ابن كثير»: جـ ٣، ص ٤٣٥، «الكشاف»: جـ ٣، ص ٥٠٠، «الوسيط» للواحدي: جـ٣، ص ٤٥٥، «المحرر الوجيز»: جـ ٤، ص ٣٦٤، «مفاتيح الغيب»: جـ ١٢، ص ٥٦٢، «القاسمي»: جـ ١٢، ص ٢١٧.

والذي تميل إليه النفس: أن الضمير يعود على الكتاب؛ لأنه أقرب مذكور في الآية في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ وذكر بعده ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

أما اختلاف العلماء في مرجع الضمير المتصل في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ هل يعود لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟، أو الكتاب المنزل عليه، وهو التوراة؟، والذي أراه أن كونه راجعًا إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو إلى التوراة لا يشكل خلافًا بين العلماء، فموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أرسل من قِبَل الله عَزَّوَجَلَّ، وأعطاه الله التوراة، فهناك التزامٌ بينهما، حيث إن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، دعا بني إسرائيل إلى ما جاءت به التوراة، التي جاءت علي يدي موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالهداية والبيان.

والمعنى: فلا تشك في أنك ستلقى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد لقيه النبي ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، ويستأنس لذلك بما أخرجه الإمامان البخاري ومسلم، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**رأيت ليلة أُسري بي موسى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **رجلًا آدم طُوالًا جعدًا، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسي** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **مَربُوعًا، مَربُوعَ الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط. الرأس، ورأيت مالكًا** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **خازن النار، والدجال، في آيات أراهن الله إياه ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ [السجدة: ٢٣]**»(١)(٢).

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في «صحيحه» بهامش «فتح الباري»، في كتاب «بدء الخلق»، باب: (٧، إذا قال أحدكم آمين، والملائكة في السماء آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه)، جـ ٦، ص ٣٥٦، برقم ٣٢٣٩، ورواه أيضًا في كتاب «أحاديث الأنبياء»، باب: (٢٤، قول الله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾، و﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾: جـ ٦، ص ٤٨٤، برقم ٣٣٩٦، وبرقم ٣٤٣٧، بتحقيق: عبد العزيز بن باز، وتعليق: إبراهيم محمد الجمل، ط. دار القلم للتراث بالقاهرة، ورواه الإمام مسلم في «صحيحه» بهامش «شرح النووي»: جـ ٢، ص ١٩٥، برقم ٢٦٧، في كتاب «الإيمان»، ط. الإيمان.

(٢) معاني الألفاظ الواردة في الحديث: «**موسى رجلًا آدم طوالًا جعدًا**» المراد به وصف سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بالأدمة وهي لونٌ بين البياض والسواد وهو السمرة، ونحيف الجسم، (رجلًا) بفتح الراء وكسر الجيم:

كذلك مراجعة سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لرسول الله ﷺ بشأن فريضة الصلاة، ليله الإسراء والمعراج، حتى خُفِّضَت من خمسين صلاة، إلى خمس صلوات في اليوم والليلة[1].

والحكمة في أن الله تعالى خص هداية التوراة ببني إسرائيل؛ لأنهم المنتفعون بهذا الكتاب.

يقول **الآلوسي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وخصوا بالذكر لما أنهم أكثر المنتفعين به»[2].

ثم يبين الله تعالى مِنَّتَهُ وفضله على بني إسرائيل فيقول عز من قائل: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي قادة وقدوة يقتدي بهم في أعمال البر والخير ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي يدعون بقيتهم إلى طاعة الله، ويرشدونهم إلى أوامر الدين، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وهذه الآية الكريمة فيها تعظيم للقرآن الكريم، وتكريم لأمة سيدنا محمد ﷺ.

أي: دهين الشعر مسترسلة، غير مُجَعَد، وقوله: (كأنه من رجال شنوءة) بفتح المعجمة، وضم النون، وسكون الواو بعدها همزة ثم هاء تأنيث: هم حيٌّ من اليمن ينسبون إلى شنوءة، وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، ولُقِبَ بهذا اللقب (شنوءة) لشنان وتباعد كان بينه وبين أهله وقومه، وهم رجالٌ معروفون بالطول في الأجسام، فشبه رسول الله ﷺ، سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بهم، وقوله: «رأيت عيسى مربوعًا مربوع الخلق إلى الحُمرة والبياض» المربوع: هو الرجل بين الرجلين في القامة، أي ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، أي: المتوسط. المعتدل الخلق بين البياض والحمرة، أي: بياضٌ بحمره، أما قوله (سبط الرأس): أي رجل الشعر، بين القطط، أي المجعد، والسبط: أي المسترسل، ليس فيه تكسر، والله أعلم.

(١) أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» بهامش «فتح الباري»، في كتاب «الصلاة»، باب: (كيف فرضت الصلاة في الإسراء)، جـ ١، ص ٥٥٢، برقم ٣٤٩ في جزء من حديث طويل وفيه: «ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت علي موسى، فقال ما فرض الله على أمتك قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك... إلخ» الحديث.

(٢) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٣٨.

يقول الإمام الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فحيث جعل الله كتاب موسى هدى، وجعل منهم أئمة يهدون، كذلك يجعل كتابك هدى، ويجعل من أمتك صحابة يهدون»[١].

ثم أخبر الله تعالى أن ما أُتُوه من هداية كان نتيجة لصبرهم، فقال: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: جعلناهم يهدون بأمرنا لما كانوا صابرين على أوامر الله وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوا به، وكذلك حينما صبروا على تحمل المشاق في سبيل الله، ومقاساة الشدائد في نصرة الدين، كما صبروا أيضًا على القليل من متاع الدنيا، ثم إنهم كانوا يصدقون بآيات الله تصديقًا يقينيًا لا مرية فيه.

وفي الآية الكريمة إشارة وإرشاد للمؤمنين بأن يتبعوا طريق هؤلاء الأئمة المتقين الذين سبقوهم، وأن يصبروا على تبليغ الدعوة مهما تعرضوا للعذاب والصعاب.

وقد ذكر العلماء أن هذه الآية الكريمة فيها تعريض بكفار مكة، يقول ابن الجوزي: «وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أطعتم جعلت منكم أئمة، ويمكن أن تكون الآية الكريمة فيها إشارة أيضًا إلى المؤمنين بالثبات على إيمانهم، وتحليهم بالصبر عند الشدائد»[٢].

ثم بين الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الأمر والحكم بيده يوم القيامة، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن ربك يا محمد يقضي بحكمه العدل بين المؤمنين الصادقين، وبين الكافرين المنكرين، فيجازي كل واحد حسب عمله، ويعطي كلًا ما يستحقه من ثواب أو عقاب، وذلك ليميز بين المحق والمبطل يوم القيامة.

---

(١) «تفسير مفاتيح الغيب»: جـ ٢١، ص ٨٨.

(٢) «تفسير زاد المسير»: جـ ٦، ص ٣٤٤.

ثالثًا - ما يُستفاد من الآيات الكريمة من الأحكام والعبر:

❁ إخبار الله تعالى لرسوله ﷺ بإيتاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التوراة، وكونه هُدىً وهِداية لبني إسرائيل.

❁ تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين، وتذكيرهم بما حدث للأنبياء وأتباعهم من إيذاء، وإرشادهم إلى الصبر وتحمل المشاق في سبيل الدعوة إلى الله تعالى.

❁ بيان أن الصبر عاقبته طيبة، وثوابه عظيم، وأن التصديق بآيات الله ورسله يورث الهداية والإمامة.

(٩) إنذارٌ وتخويفٌ للمكذبين

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٦-٢٧].

أولًا - المباحث الإعرابية والبلاغية:

الاستفهام في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ للتوبيخ والتقريع، وكذا في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ ﴾ وأيضًا في قوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾، وكذا في قوله: ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾.

﴿ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾: أرض غليظة يابسة لا نبت فيها، ويقال: الأرض الجرز التي تحرق ما فيها من النبات وتبطله، يقال: جرزت الأرض: إذا ذهب نباتها فكأنها قد أكلته، كما يقال: رجل جروز إذا كان يأتي على مأكول لا يبقى شيئًا، وسيف جراز يقطع كل شيء يقع عليه ويهلكه، وكذلك السنة الجروز[١].

قرئ: (أولم نهد لهم) بالنون، غير أنها شاذة، وقرأ ابن السميقع (يمشون) بالتشديد على أنه تفعيل من الشيء للتكثير[٢]، وقرئ (الجرْز) بسكون الراء[٣].

---

(١) «غريب القرآن»: ص ١١٩.

(٢) «مختصر في شواذ القرآن»: ص ١١٨.

(٣) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٤٠.

جاء في (مختار الصحاح): أرض (جُرُز) وجُرْز، كعصر وعصر لا نبات بها[١]، وقرأ أبو حيوة وأبو بكر في رواية (يأكل) بالياء التحتية، بدل التاء[٢]، وقرأ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (تبصرون) بالتاء الفوقية، بدل الياء[٣].

ثانيًا - الشرح وبيان المعنى العام للآيات الكريمة:

ينبه الله تعالى في الآيات السابقة على آثار قدرته في مخلوقاته، ويقيم الحجة على كفار مكة وذلك بإخبارهم بما حدث للأمم السابقة الذين كفروا وأعرضوا عن ذكر الله تعالى، فأهلكهم الله تعالى، وفي هذا يقول جلت قدرته: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ أي أغفل هؤلاء المشركون كفار مكة عمّا حاق بالأمم السالفة حينما أهلكهم الله عند تكذيبهم بالرسل فلم يبق لهم باقية، وذلك مثل ما حدث لقوم عاد، وثمود وقوم لوط. وغيرهم، والآية الكريمة فيها إشارة إلى الأصل الأول من الأصول الثلاثة وهو التوحيد.

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى:

- منها قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل: ٥٢]، وقوله جل ذكره: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥].

---

(١) «مختار الصحاح»، مادة: (ج ر ز)، ص ٩٩.

(٢) 'مختصر في شواذ القرآن»: ص ١١٨.

(٣) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٤٠.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي إن في إهلاك الأمم السابقة ودمارهم، وما حل بهم بسبب كفرهم بالله تعالى، وأيضًا بسبب تكذيبهم للرسل لدلالات واضحات ومواعظ وعبر، أفلا يسمعون سماع قبول وتدبر واتعاظ؟

ثم يتابع القرآن الكريم الحديث عن قدرة الله تعالى ودلائل وحدانيته، وفي ذلك أيضًا تبكيت وتقريع لكفار مكة حيث إنهم قد عموا عن النظر إلى هذه الدلائل الواضحة التي تدل على قدرته تعالى رغم أنهم يشاهدونها، فيقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ وقد أشرنا آنفًا إلى أن الأرض الجرز: هي التي لا نبات فيها.

والمعنى: أعموا ولم يشاهدوا كمال قدرتنا في أننا نسوق الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها من شدة العطش لنحييها بالنبات؟

وسوق الماء يكون بسبب سوق السحاب الحامل له، وقيل: نسوق الماء نفسه بالسيول، وقيل: بإجرائه في الأنهار ومن العيون[1].

هذا وقد ذكر المفسرون أقوالًا في المراد بـ ﴿الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾، فقال بعضهم: أي أرض تتصف بهذه الصفة على العموم، وذكر البعض: أن المراد أرض باليمن، وقيل: أرض مصر، وقيل: غير ذلك.

والإمام الآلوسي يذكر بعض هذه الأقوال غير أنه يميل إلى القول بالعموم فيقول:

«والظاهر أن المراد بالأرض المتصفة بهذه الصفة أي أرض كانت، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنها قرى بين اليمن والشام، وأخرج هو وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي شيبة عن ابن عباس أنها أرض باليمن، وإلى عدم التعيين ذهب مجاهد، أخرج عنه جماعة أنه قال: الأرض الجرز هي التي لا تنبت وهي أبين، ونحوها من الأرض»[2].

(١) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٤٠.

(٢) «تفسير الآلوسي»: جـ ٢١، ص ١٤١.

والإمام ابن كثير ينفي القول بأن المراد بها أرض مصر فقط. فيقول: «وليس المراد من قوله: ﴿ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مثل بها كثير من المفسرين، فليست هي المقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعًا من هذه الآية فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطرًا لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يحتمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طين أحمر فيغشى أرض مصر، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضًا لينبت الزرع فيه، فيشتغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبدًا»[1].

ولما بين الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منته وفضله بسوق الماء إلى الأرض الجرز، وضح الفائدة المرجوة من هذا السوق، فقال جل ثناؤه: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ أي: إننا نخرج بهذا الماء أنواعًا من الزروع والثمار تأكل منه دوابهم مما يتفق معها من الكلأ والحشيش، وكذلك تأكل منه أنفسهم مما يليق بهم من الحب والفواكه، والخضر والبقول.

وربما يسأل سائل: لماذا قدمت الأنعام بالنسبة للأكل على الأنفس؟

والإمام الرازي يجيب على هذا السؤال فيقول: «قدم الأنعام على الأنفس في الأكل لوجوه:

أحدها - أن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب، ولا يصلح للإنسان.

الثاني - وهو أن الزرع غذاء الدواب وهو لابد منه، وأما غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان، فكأن الحيوان يأكل الزرع، ثم الإنسان يأكل من الحيوان.

---

(١) «تفسير ابن كثير»، جـ ٢، ص ٤٦٤.

الثالث - إشارة إلى أن الأكل من ذوات الدواب، والإنسان يأكل بحيوانيته، أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة»[١].

ثم قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي: أفلا يشاهدون ذلك بأعينهم، ويتعظون به ويعتبرون، فيستدلون به على كمال قدرة الله تعالى وفضله، ويعلمون تمام العلم أن الذي أحيا هذه الأرض الميتة قادر على إعادتهم بعد موتهم؟

وهنا نلاحظ أن الآية السابقة ختمت بقوله: (أفلا يسمعون)، وهذه الآية ختمت بقوله: ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾، وذلك لأن الأولى تتعلق بحال الماضين وهي مسموعة، أما الثانية، فإن الأمر فيها يرى بالأبصار.

يقول الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجعلت الفاصلة هنا ﴿يُبْصِرُونَ ﴾ لأن ما قبله مرئي، وفيما قبله (يسمعون) لأن ما قبله مسموع، وقيل: ترقيًا إلى الأعلى في الاتعاظ مبالغة في التذكير ورفع العذر»[٢].

ثالثًا - ما يُستفاد من الآيات الكريمة من الأحكام والعبر:

- بيان كمال قدرة الله تعالى وآثارها الواضحة في إهلاك الأمم السابقة المكذبة بآيات الله ورسله.
- ينبغي لكل عاقل أن يعتبر ويتعظ بما حدث لغيره ممن كان قبله حتى لا يتعرض لمثل مصيرهم.
- بيان كمال قدرة الله تعالى في إرسال الماء إلى الأرض الخالية من النبات، فيخرج بذلك الماء الزروع والثمار التي ينتفع بها الإنسان والحيوان.

---

(١) «تفسير مفاتيح الغيب»: جـ٦، ص ٥٦٦.

(٢) «تفسير الآلوسي»: جـ٢١، ص ١٤١.

(١٠) يوم الفصل والجزاء

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٨-٣٠].

أولًا - المباحث الإعرابية والبلاغية:

يوم الفتح: يوم القيامة والحشر، وفيه الحكم والحساب، والمجازاة من الله تعالى.

يقول ابن فارس: «الفاء والتاء والحاء أصل صحيح يدل علي خلاف الإغلاق، يقال: فتحت الباب وغيره فتحًا، ثم يحمل علي هذا سائر ما في هذا البناء، فالفَتْح: الحكم، والله تعالى الفاتح: أي الحاكم[(١)]»، وبهذا المعنى قال الفيروز آبادي[(٢)]، وصاحب (المصباح المنير)[(٣)]، والراغب[(٤)] رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

وقرأ اليماني ﴿ مُّنتَظِرُونَ ﴾ بفتح الظاء اسم مفعول على معنى أنهم أحقاء أن يُنتَظَر هلاكهم، أو أن الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ينتظرونه، والمراد أنهم هالكون لا محالة[(٥)].

ثانيًا - الشرح وبيان المعنى العام للآيات الكريمة:

بعد أن بين الله تعالى دلائل قدرته في مخلوقاته، وأقام الحجة على الكفار، أتبع ذلك بالأخبار عن استعجال الكفار لبأس الله وعقابه، استبعادًا وتكذيبًا وعنادًا، فقال

---

(١) «معجم مقاييس اللغة»، مادة: (فتح)، ص ٨٣٤.

(٢) «القاموس المحيط»: ص ٢١٢.

(٣) «المصباح المنير» للفيومي، مادة: (فتح)، ص ٢٣٩.

(٤) «معجم مفردات القرآن»: ص ٤١٤.

(٥) «المحتسب في تبيين وجوه القراءات»: جـ ٣، ص ١٧٥، «شواذ القرآن»: ص ١١٨.

جل شأنه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ ﴾ أي: يقول كفار مكة للمسلمين على سبيل السخرية والتهكم والاستهزاء: متى ستنصرون علينا وتكون لكم الغلبة والفتح علينا كما تزعمون؟

والفتح: هو الفصل في الخصومة، ولما كان قول المشركين هذا استبعادًا وإنكارًا لهذا اليوم، قالوا لهم: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي: إن كنتم صادقين في أن هناك يومًا يفصل فيه بيننا وبينكم، أو أن الله ينصركم علينا كما تزعمون، فمتى هذا اليوم؟

لذلك رد القرآن الكريم عليهم بالتبكيت والتوبيخ والتقريع، فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ ﴾ أي: قل لهم يا محمد ﷺ توبيخًا وتبكيتًا إن يوم الفصل يكون إذا حل بكم بأس الله وغضبه وسخطه في الدنيا والآخرة، وحينئذ لا ينفع إيمانكم، ولا اعتذاركم، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي: إنه إذا جاء هذا اليوم فلا يؤخرون، ولا يمهلون للتوبة.

وقد اختلف العلماء في المراد بيوم الفتح، فمنهم من يرى أنه يوم القيامة لأنه يوم الفصل والحكم والقضاء، ومنهم من يرى أن المراد: يوم فتح مكة، وقيل: المراد بيوم الفتح: يوم بدر.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه أربعة أقوال:

أحدها - أنه ما فتح يوم بدر، روى عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

والثاني - أنه يوم القيامة، وهو يوم الحكم بالثواب والعقاب، قاله مجاهد.

والثالث - أنه اليوم الذي يأتيهم فيه العذاب في الدنيا، قاله السدي.

والرابع - فتح مكة، قاله ابن السائب والفراء وابن قتيبة[1]. اهـ

---

(١) «تفسير زاد المسير»: جـ٦، ص ١٨٥.

- وبالقول (الثاني) قال القرطبي[١]، وأبو حيان، وردَّ القولين (الأول، والرابع) لعدم مطابقته لما بعده من الآية؛ لأن من آمن يوم فتح مكة إيمانه ينفعه، وكذا قول من قال: يوم بدر[٢].اهـ

- وبالقولين (الأول، والثاني) قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وردّ القول (الرابع) فقال: «الفتح: الحكم، هذا قول جماعة من المفسرين، وهذا أقوى الأقوال، وقالت فرقة: الإشارة إلى فتح مكة، قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف يرده الإخبار بأن الكفرة ينفعهم الإيمان، فلم يبق إلا أن يكون الفتح حكم الآخرة وهذا قول مجاهد، وإما فصل في الدنيا كبدر ونحوها[٣] اهـ.

وقد ذكر هذه الأقوال أكثر المفسرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ[٤].

وبالنظر في هذه الأقوال نلاحظ ما يلي:

- أن القول بأن المراد: بيوم الفتح (يوم القيامة) هو الذى تطمئن إليه النفس، فهو يوم الفصل والحكم والقضاء وإزالة الشبه.

- أما القول بأن المراد به (فتح مكة، أو يوم بدر) فهو بعيد؛ لأن الله تعالى أخبر عن هذا اليوم بأنه لا ينفع فيه إيمان الكافر، وقد آمن من آمن من الكفار يوم بدر، وفى فتح مكة، فقُبِلَ منهم الإيمان.

---

(١) «تفسير القرطبي»: جـ٦، ص ٥١٩٣.

(٢) «تفسير البحر المحيط»: جـ٨، ص ٤٤٢.

(٣) «تفسير المحرر الوجيز»: جـ٤، ص ٣٦٦.

(٤) ينظر ما يلي: «تفسير أبي السعود»، جـ٤، ص ٣٠٥، «الآلوسي»: جـ١٢، ص ٢١٣، «البيضاوي»: جـ٤، ص ٣٦٠، «الوسيط»: جـ٣، ص ٤٥٥، «الكشاف»: جـ٣، ص ٥٠١، «ابن كثير»: جـ٣، ص ٤٣٦، «مفاتيح الغيب»: جـ١٢، ص ٥٦٤، «القاسمي»: جـ١٢، ص ٢١٩، «صفوة البيان»: ص ٥٢٤.

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مؤكدًا ذلك، ومنكرًا على من يفسر ذلك اليوم (بفتح مكة): «ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتحُ مكة فقد أبعد النجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قَبِلَ رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريبا من ألفين، ولو كان المراد هنا (فتح مكة) لما قُبِلَ إسلامهم، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ إنما المراد الفتح: الذى هو القضاء والفصل[(١)].اهـ

وبه قال الإمام الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورجح كون المراد به (يوم القيامة)[(٢)]، واللهُ أعلم.

وكما بدئت السورة الكريمة بإثبات التوحيد، والرسالة، والحشر، كذلك ختمت بما بدئت به، ففي آخرها تحدثت عن إثبات التوحيد، والرسالة، ثم ختمت بإثبات الحشر.

ولما وضح الله تعالى هذه المسائل وأتقن الدلائل، ولم ينفعهم ذلك، قال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض يا محمد ﷺ عن هؤلاء الكفار، ولا تبال بهم وبتكذيبهم واستهزائهم، ولا تناظرهم، إنما الطريق بعد ذلك قتالهم.

وقد ورد عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن ذلك منسوخ بآية السيف، ولا يخفي أنه يحتمل أن المراد الإعراض عن مناظرتهم لعدم نفعها، أو تخصيصه بوقت معين فلا يتعين النسخ[(٣)].

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَٱنتَظِرْ ﴾ نصرك عليهم وهلاكهم، وما يحل بهم من عذاب الله، ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ هلاكك.

والإمام ابن كثير له كلام حسن في هذا الشأن فيقول: «وانتظر، فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد، وقوله: ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أي أنت منتظر، وهم منتظرون ويتربصون بكم الدوائر، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير»: جـ٣، ص ٤٣٦.

(٢) ينظر: «تفسير الآلوسي»: جـ٢١، ص ١٤٥.

(٣) ينظر: «تفسير الآلوسي»: جـ٢١، ص ١٤٥.

شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠]، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم، وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غبّ ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم»[(١)].

ثالثًا - ما يُستفاد من الآيات الكريمة من الأحكام والعبر:

❁ ثبوت يوم القيامة، وأنه كائن لا محالة، وأن المراد بيوم الفتح هنا يوم القيامة.

❁ أن يوم القيامة لا ينفع فيه عذر الكافرين، كما لا يقبل منهم إيمان.

❁ أمر الله تعالى لرسوله ﷺ بالإعراض عن الكافرين، وعدم مبالاته بما يقولون من تكذيبه، وإنكارهم للبعث، وتسليته ﷺ، ووعده بالنصر والغلبة عليهم.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير»: جـ٣، ص ٤٦٥.

الخاتمة

نسأل الله حُسنها، فالحمد لله الذى بنعمته ومنته وتوفيقه تتم الصالحات.

وبعد...

ففي ختام بحثي هذا في دراسة وتحليل وتفسير سورة (السجدة) المباركة، وعنوانه: **(الحجة في تفسير سورة السجدة - دراسة تحليلية)** أسال الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين أجمعين.

فهذا جهد المقل، فإن وُفِقتُ وأصبت فبفضلٍ من الله، وإن كانت الأخرى فمن نفسي واستغفر الله لذنبي، وحسبي أني اجتهدت قدر طاقتي، وتوخيت الصواب ما أمكنني ذلك، ولا يكلف الله نفسًا فوق طاقتها، ولا تجودُ نفسٌ إلا بما تجدُ، والله من وراء القصد، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم

وآخر دعوانا.. أن الحمد لله ربّ العالمين

كتبه

د/ أحمد محمد توفيق عبد العال

فهرس مصادر البحث

أولًا - القرآن الكريم (جلّ من أنزله):

ثانيًا - كتب التفسير وعلوم القرآن والقراءات:

- (البرهان في علوم القرآن) للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، بتحقيق/ محمد أبي الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، لبنان
- (التفسير الواضح) للدكتور/ محمد محمود حجازي، الطبعة الرابعة سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٧م، طبعة مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة.
- (التفسير القرآني للقرآن) للشيخ/ عبد الكريم الخطيب، طبعة دار الفكر العربي، بيروت.
- (التفسير الكبير)، أو (مفاتيح الغيب) لفخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي القرشي، الطبعة الأولى ١٩٣٨م، طبعة المطبعة البهية المصرية بالقاهرة.
- (أحكام القرآن لابن العربي) لأبي بكر محمد بن عبد الله، بتحقيق / محمد عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (أحكام القرآن للجصاص) لأبي بكر أحمد بن علي الرازي، الطبعة الأولى ١٣٣٥هـ، طبعة دار إحياء الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- (أسباب النزول) لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، بتحقيق/ رضوان جامع رضوان، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، طبعة مكتبة الإيمان بالمنصورة.
- (تفسير ابن كثير)، أو (تفسير القرآن العظيم) للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، بتقديم / عبد القادر الأرناؤط، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، طبعة جمعية إحياء التراث الإسلامي بدولة الكويت.
- (تفسير أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) للشيخ/ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، طبعة عالم الكتب، بيروت، لبنان.

- (تفسير الآلوسي)، أو (روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى) لمحمود بن عبد الله الآلوسي البغدادى الحنفى، طبعة دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان.
- (تفسير البقاعى)، أو (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعى، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (تفسير الزمخشرى)، أو (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر، طبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة.
- (تفسير حاشية الصاوى على الجلالين) للشيخ / أحمد الصاوي، بتحقيق وضبط: محمد عبد السلام شاهين، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.
- (تفسير زاد المسير) لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزى، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ، طبعة المكتب الإسلامى، بيروت، لبنان.
- (تفسير صفوة البيان لمعانى القرآن) للشيخ/ حسنين محمد مخلوف، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م، طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت.
- (تفسير الطبرى)، أو (جامع البيان في تأويل القرآن)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (تفسير الظلال)، أو (فى ظلال القرآن) للشيخ/ سيد قطب، الطبعة الخامسة، سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م، طبعة دار إحياء التراث العربى،، وط. دار الشروق، بيروت، لبنان.
- (تفسير القاسمى)، أو (محاسن التأويل) لمحمد جمال الدين القاسمى، بتحقيق الشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقى، واعتنى به وصححه: سمير هشام البخاري، طبعة دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان.
- (تفسير القرآن الكريم) للشيخ/ محمود شلتوت، الأجزاء العشرة الأولى، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٦٦م، طبعة دار القلم، بيروت، لبنان.

- (تفسير القرطبى)، أو (الجامع لأحكام القرآن) لأبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٦٧م، طبعة دار الكتب المصرية، بالقاهرة.

- (تفسير الماوردى)، أو (النكت والعيون): على بن محمد بن حبيب، بتحقيق الشيخ/ خضر محمد خضر، طبعة دار الصفوة بالكويت.

- (تفسير أبي السعود)، أو (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) للقاضى أبي السعود بن محمد العمادى الحنفى، طبعة دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان.

- (تفسير التحرير والتنوير) للشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس.

- (مناهل العرفان في علوم القرآن) للشيخ/ محمد عبد العظيم الزرقاني، ط. دار إحياء الكتب العربية.

- (بشير اليسر شرح ناظمة الزهر) للإمام الشاطبى في علم الفواصل، الشيخ/ عبد الفتاح القاضي، ص ١٣٠، ط. الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية.

- (الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها) لمكى بن أبى طالب القيسي، بتحقيق: محى الدين رمضان، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت.

- (المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها) لابن جني، ط. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، سنة ١٩٩٩ م، القاهرة.

- (النشر في القراءات العشر) لابن الجزري، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

- (الدخيل من أسباب التنزيل)، د/ أبو عمر نادي بن محمود حسن الأزهري، ط. الأولى، ١٩٩٩م، ط. مطبعة الأمانة بالقاهرة.

- (الصحيح من أسباب النزول) لعصام عبد المحسن الحميدان، ط. الأولى ١٩٩٩م، ط. مؤسسة الريان، بيروت، لبنان.

ثالثًا - كتب الحديث وعلومه:

- (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) لابن عبد البر القرطبى، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (الإصابة في تمييز الصحابة) للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.
- (تقريب التهذيب) للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى، بتقديم/ بكر بن عبد الله أبي زيد، وتحقيق: صغير أحمد شاغف الباكستانى، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، طبعة دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية.
- (سنن ابن ماجه بشرح السندى وحاشية البوصيرى)، بتحقيق الشيخ/ خليل مأمون شيحا، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- (سنن أبي داود) للحافظ سليمان بن الأشعث السجستانى، بتحقيق: محمد محى الدين، طبعة دار إحياء السنة النبوية، القاهرة.
- (سنن الترمذي) لمحمد بن عيسى بن سورة، بتحقيق: أحمد محمد شاكر، ويوسف كمال الحوت، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (سنن النسائي) لأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، بتحقيق: د/ عبد الفتاح أبو غدة، طبعة دار المطبوعات الإسلامية، سوريا.
- (صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان)، بتحقيق وتخريج: شعيب الأرناؤط، الطبعة الثانية ١٩٩٣م، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- (صحيح الإمام البخاري) للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، بترتيب الشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقى، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (صحيح الإمام مسلم) للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى، بترتيب وتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، طبعة دار ابن حزم.

- (فتح الباري شرح صحيح البخارى) للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلاني، بترتيب وترقيم الشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقى، وتحقيق الشيخ/ عبد العزيز بن باز، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

رابعًا - المعاجم:

- (الأعلام) لخير الدين الزركلي، طبعة دار العلم للملايين، بيروت.

- (الصحاح للجوهرى)، أو (تاج اللغة وصحاح العربية) لإسماعيل بن حماد، بتحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ، طبعة دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

- (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)، وضعه الشيخ/ محمد فواد عبد الباقى، طبعة المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان.

- (المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم)، وضعه: صبحي عبد الرءوف، وأحمد مصطفى قاسم، ط. دار الفضيلة للنشر والتوزيع بالقاهرة.

- (المعجم الوسيط) لمجموعة من العلماء بمجمع اللغة العربية بمصر، د/ إبراهيم مدكور وآخرون، الطبعة الثالثة، طبعة دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان.

- (لسان العرب المحيط) لابن منظور محمد بن مكرم، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، ونديم مرعشلى، طبعة سنة ١٣٩٠ هـ، طبعة دار صادر، بيروت، لبنان.

- (مختار الصحاح) لأبي بكر الرازي، طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة.

- (معجم مقاييس اللغة) لأبى الحسين أحمد بن فارس، بتحقيق: عبد السلام محمد هارون، طبعة دار الكتب العلمية، إيران.

ملخص البحث

تضمن هذا البحث بعض الأحكام الشرعية الجليلة التي استلهمت من آية الدين حسب ما يسره الله تعالى.

وتلك أحكام هامة لا يستغني عنها المسلم في حياته اليومية وتعاملاته المختلفة مع الآخرين، ومن ذلك: التعريف بكلمة الدين في اللغة والاصطلاح، ومناسبة الآية الكريمة لما قبلها، والحديث عن الآية من حيث النسخ وعدمه لما يترتب على ذلك من أحكام شرعية، وكذا الحديث عن أهمية العدالة في المسائل الشرعية، وحكم كتابة الدين من حيث وجوبه وعدمه، وهل من حق الكاتب أن يعتذر عن الكتابة في حال طلب ذلك منه، والمراد بالسفيه والضعيف، ثم الحديث عن أهمية الشهادة في الدين، ونصابها، وبيان القول في الشاهد هل من حقه أن يعتذر عن أداء الشهادة إذا طلب منه، وهل تلزم الكتابة في الأمر الكبير والصغير، أم في الكبير وحسب، وتعرض البحث لذكر حكم الإشهاد في التبايع، ومتى يعفى عن الكتابة، ثم ما البديل في حال عدم وجود الكاتب، وفي أواخر البحث الترهيب من كتمان الشهادة، ثم الخاتمة، وفيها أهم الفوائد التي استنتجت من هذه الآية الكريمة، هذا ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقنا الإخلاص والتوفيق، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين